ABU ABDO ALBAGL

رواية

سِفر الأراجوز

أحمد سمير سعد

مدونة أبو عبدو

اسم الأراجوز

أحمد سمير سعد

تصميم الغلاف: محمد عيد

تدقيق لغوي: خالد رجب عواد

رقم الإيداع: 2015/19543

I.S.B.N: 978-977-488-417-7

دار اكتب للنشر والتوزيع

الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،

المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01144552557 – 01147633268

E – mail:daroktob1@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية ، 2015م

جميع الحقوق محفوظة©

دار اكتب للنشر والتوزيع

سِفر الأراجوز

أحمد سمير سعد

رواية

دار اكتب للنشر والتوزيع

يقولون إن الإله قد منح الحرباء المقدرة على التلون بلون ما تقف عليه حتى تتخفى عن أعدائها الطبيعيين.

الحرباء باتت لا تعرف اللون الذي خُلقت عليه.

خلف الصندوق الخشبي أخفى جسده، فقط يده وقد ارتدت "الأراجوز" برزت من أعلى الصندوق.

يُحَرِّك أصابعه وكفه فيرقص "الأراجوز"، يطلق الصيحات وقد غيَّر من نبرة صوته، يدير كفه في سرعة فتدور "الشراشيب" المتصلة "بطرطور" "الأراجوز".

الأطفال يغرقون في الضحك دافعين بأجسادهم للأمام والخلف.

يقولون إن أحد العابدين قبل أن يُتوفى قد تمنَّى على رب الزمان وخالق الأكوان أمنية، كان الرب الخلّاق قد أقسم على نفسه أن يجيبه إلى كل ما يسأل جزاء إخلاصه.

أراد العابد لروحه أن تتعلق بالأرض، أن تجوب منها المشارق والمغارب، أن تحمل روحه للبشر عطايا الإله.

يقولون إنك متى أحسست برجفة تشمل جسدك كله، بيدٍ حانية تحيط بقلبك، إذًا فقد مرت الروح إلى جوارك، ولربما مسّت جسدك.

***

بين الأطفال يجلس، في العاشرة من عمره، فاحم الشعر، واسع العينين، دقيق الفم، يحمل على الجانب الأيمن لذقنه حسنةً داكنة.

الصغير هو حفيد ذلك العابد، غاضت الابتسامة على شفتيه منذ تُوفيَ الجد.

أهله اقتادوه جبرًا لمشاهدة عرض "الأراجوز".

مرتدي "الأراجوز" في كفه يستشعر الرجفة وقد شملت جسده كله، يدًا حانيةً وقد أحاطت بقلبه.

الحفيد ترسم شفتاه ابتسامة خفيفة.

– اتخذت من دميتك القماشية عوضًا عن الأبناء.. قد حان وقت استبدالك إياها بابنٍ لك.

***

يقف أمام الأطفال وقد أمسك بطبلة أخذ يداعبها بأصابعه، ابنه إلى جواره، اكتسى بقماشٍ أحمر، غطّى رأسه "بطرطورٍ" أحمرَ، الابن يرقص، يدير رأسه في سرعة وقد انحنى للأمام، "الشراشيب" المتصلة "بالطرطور" تدور كذلك في سرعة.

الأطفال يغرقون في الضحك، بينهم كان ذلك الذي في العاشرة من عمره، فاحم الشعر، واسع العينين، دقيق الفم، الحامل لحسنة داكنة على الجانب الأيمن لذقنه، وقد أغرق كذلك في الضحك.

&&&

ضمت جسدها إلى جدار المقام، تقبله، قلبها يهتف:

– مدد يا طاهرة.. مدد.

الأيام تمضي دون أن يزل عليها الدم، أخفت الأمر عن الجميع حتى عن زوجها.

سنوات وهي تجرب الوصفات، ترتاد الزارات، تؤدي مطالب الجان وإخوانهم البشريين.

•••

تزيح عنها الغطاء، تهز زوجها، صوتها لحن فرح تعزفه الملائكة:

– اصحى يا راجل.. اصحى!

– في إيه؟! اللهم اجعله خير..

– مدد يا طاهرة.. مدد.. الطاهرة جات لي.. مسحت على بطني ودعت لي.. ماكنتش نائمة.. ما كانش حلم.. عينيّ كانت مفنجلة قد كدهه.. لقيتها قدامي والنور بيشع منها.. قالت لي.. خلاص الواد

النسب ومعادتش العين تقدر تزحزحه.. بطنك هيكبر وسرك هيتعرف.. أنا حبلى .. حبلى يا راجل!

***

على موائد الكلام المنصوبة على ناصية الحارة أعلنت بشارة الطاهرة، لكنها دفنت السر في عمقٍ سحيقٍ منها، كل ما أخبرت به الطاهرة بعد ذلك هي أمور واجبة الكتمان.

الطاهرة مالت على أذنها، همست فيها ببعض الكلمات، ثم حدقت فيها بعينين تلتمعان ببريق التحذير من البوح.

الحياة تُمنح للآلاف كل يوم، قليلون هم الذين يُمنحون مفاتيح نفحات الكون، البركات تغمرهم، من خلالهم تتوزع على كل عُمَّار الأرض، عددهم ثابت، زوال أحدهم دون مثول البديل معناه اختلال لن يكون.

أحدهم تذوي شعلته بعد أن تأججت شابة طويلًا، مع انطفاء الشعلة تمامًا ستنطلق منها شظية ملتهبة تدفع شعلة وَلَدِك للتوهج، سيصاحب ذلك سحب المولود لأولى شهقاته.

***

على الفراش ترقد، وليدها إلى جوارها مغمض العينين.

بأصبعين تتحسس جلده الناعم، تتملكها رغبة شديدة في تلمس [illegible] مطالعة كل تفاصيله.

تدفع بإصبعيها تحت ثوبه، تتحسس منه الصدر، عيناها تتبعان إصبعيها، الفتحة الضيقة التي صنعها الإصبعان بعد اختراقهما لطيات الملابس مكّنت عينيها من رؤية نقطة بيضاء غريبة.

تكشف صدر وليدها، التدقيق في النقطة يمنحها شكل كائن زاحف، بياضه يماثل – تمامًا – بياض الملابس التي تلف الصغير.

ترفع وليدها إليها، تعبث بصدره، بالنقطة البيضاء، قلبها يرعد، وجهها شاحب. النقطة تستحيل إلى لونٍ يماثل لون جلدها، لا يلبث أن يعود إلى ما كان عليه من بياض، حدث التغير عندما لامست كف الوليد وجهها.

تضم الكف ثم تتركها لتلامس ملبسه، تدفع إلى كفه بأشياء مختلفة الألوان، لون النقطة يتغير تبعًا لما يضم عليه أصابعه.

الأم ذاهلة، تتطلع نحو الصغير. تهتف في خشوع:

– مدد يا طاهرة.. مدد!

الأب يتساءل عما بها، تشير نحو صدر الرضيع، يرفع الوليد إليه. يغطي صدره، ينظر نحوها في تعجب من تصرفها، أدركت أنه لم يرَ.

تكتم ما تستشعره. قلبها يهتف:

– مدد يا طاهرة .. مدد!

&&&

الشموع في خدرها الرملي تتناقص تحت وطأة اللهب المتأجج في قمة فتيلها.

بكل يومٍ عاشه المولود أشعلوا شمعة، إلى جوار الشموع جلست الداية تعد أكياس الملح، بين الحين والآخر تنظر إلى الشموع بطرف عينها.

يداها تنقلان ما تحويه ظلمات البطون إلى نور العالم، في صدارة موائد الكلام يجلسنها، هي العارفة الخبيرة بجل الأسرار.

– نفسي امبارح هفتني على تفاح.. الراجل داخ لغاية اما جابه.

– هو ده الوحم ولا بلاش.

ابتسمت فور ملاحظتها للعيون وقد تركزت عليها.

– اللي هيرزقك به ربنا هتعلى مراتبه.. هيعيش في قصور.. هيتلف بالحرير وينام على النواعم.

تصمت قليلًا ثم تضيف:

– ما تستغربوش .. عارفين إني وارثة شغلانة الداية كابر عن كابر.. وكمان مرضعة نص ولاد الحي.. الوحم ده مش طلب الست مننا...لا ده طلب العيل في البطن.. وعلى حسب الطلب بيكون مزاجه.. وعلى حسب مزاجه بتكون أيامه.

تأملت العيون المحدقة فيها ثم واصلت الحديث:

– إن كان وحم التفاح بشارة، فأعظم بشارة هي وحم المشمش..

– وإيه هي بشارة وحم المشمش؟

– اللي هتوحم عليه هي بس اللي من حقها تعرف.

إحدى الشموع انطفأت، تلفت، تنسحب إليها، تعيد إشعالها.

الشموع يجب أن تكمل رحلة الذوبان حتى النهاية، متى انطفأت إحداها حوّمت مقادير تحمل البلاء.

***

أم الوليد أعلنتهن ببشارة الطاهرة، اختلت بالداية ثم سألتها عما تخفيه الحياة لمن طلبوا وهم في البطون المشمش.

– مافيش إجابة إلا للي يطلب ابنها المشمش.

– ابني طلبه..

– احلفي!

– والله.

تحملها على الجلوس، تربت عليها، تحيطها بنظراتها:

– ابنك شايل الخير كله.. هتعلى مراتبه ومعاه هيعلى أهله.. خيره مش ليه لكن للي حواليه

المشمش فاكهة عزيزة واللي زي ابنك عزاز في الدنيا.

في مختلف أرجاء البيت تنثر الداية ذرات الملح وهي تتعوذ وتدعو.. توزع – كذلك – أكياس الملح القماشية الصغيرة في مختلف الأركان. تعلّقها في أعناق الصغار.

اللهب أتى على كل الشموع، مع انتهائها ارتفعت البشارات بالحياة الهانئة.

تعلو دقات "الهون".

الصرخات تصم آذان الجميع.

الألسنة ذاهلة تردد نبأ وفاة أم الوليد، البعض دفعته الصدمة للعويل، البعض الآخر للحوقلة.

في عائلتها تتناقل النسوة الوصية، من كان برجها برج سعد ألقت أمامها الأيام بأم توحمت على المشمش، من طلب وليدها المنتظر المشمش تُوفّيت يوم سبوعه، متى ماتت الأم تستطيع أن تصبح له أمًا، متى شق طريق الصعود جذبها إليه.

الوليد يصرخ، تضمه الداية إلى صدرها، فسرت الصرخات على أنها طلب للطعام، استأذنت رب الدار في غرفة خالية، ألقمت الوليد ثديها وهي تهدهده.

&&&

حملتها كلمات الاستدعاء على مغادرة أرضها الخلاء، المثول بين يديّ ملك الجان.

أخرج لها عهدًا مختومًا بخاتمه الملكي.

– هذا عهد إخاء، سؤال البشري الذي تعاهد وإياي نافذ.. كان سؤاله بجنيةٍ في مواصفاتك. العلوم تشير إلى أن المهمة التي سأحملك عليها ليست بالثقيلة.. فسرعان ما ستقعين في عشقه بالفعل.. وستلازمينه دون أوامر.. أريدك الآن ببيته.. امرأته توفيت بالأمس وتركت له ابنًا وحيدًا.. مَنعُه من الزواج لمرةٍ أخرى سحرٌ سألته الداية وأمر به أخي في العهد.. التنفيذ واجب، متى كان الرفض عاقبتك بالحرق..

***

الجنية اقتحمت عليه الحمام، يصب الماء على جسده العاري، حملت الشمعة من مكانها، وضعتها في مكانٍ آخر، بالحائط التصق.

عيناه مثبتتان على الشمعة، أعادت الشمعة مرةً أخرى مكانها الأول، ملتصقًا بالحائط يواصل الخروج نحو الباب بخطواتٍ ضيقةٍ ونيدة.

تقترب منه، تخترق وعيه كحلم، ترتدي جسدًا بشريًا خارقًا، تلقي بعبيرها عليه، تحيط خصره بذراعيها، تضغط صدرها الناهد إلى صدره، تعبث بشفتيها في وجهه قبل أن ترسو إلى شفتيه.

في سريره ينام، تتسلل إلى جواره، تضم ظهره، يلتفت، فتضمه إليها أكثر، تدفن شفتيها في شفتيه.

***

إلى الباب يسدد نظراتٍ خفية، عليهم تقبل العروس التي أشاروا بها، يتطلع إلى وجهها سريعًا، حوله تدور نقاشات حول جمالها، حظه السعيد بنيل مثلها، لا يلفظ بكلمة.

عندما ضمه الشارع وذويه، أشار عليهم بالرفض.

***

في سريره ينام، الجنية تتسلل إليه، تضمه إليها، قبل أن تدفن شفتيها في شفتيه دفعته للتحديق طويلًا في وجهها.

في الصباح يغتسل من آثار الاحتلام، تخترق عليه خلوته، تدفعه نحو الحائط، وتدفع نفسها إليه.

&&&

- علاجه مش بالحجامة أو بالأعشاب أو أي وصفة من الوصفات اللي مالية أرفف دكاني..

دي أم البنين.. أنا شايف علامتها على جبين الولد.. أم البنين ما يقدرش عليها غير قلب الأم.. وانت للولد أكثر من أم.. علشان كده ما حدش غيرك يقدر يصارعها.

يتحرك لسانها بكلماتٍ لم تعبر شفتيها.

***

أم البنين الجنية التي تسكن تحت الأرض تترصد الذكور من الأطفا. تنزع أرواحهم من الأجساد مستمدةً طاقتها من أنفاس الحاسدات المُبتَليات بالإناث.

***

أحاط الرضيع بقطعةٍ من قماشٍ أبيض، أمسك بطرفها ومد الطرف الآخر إلى الداية، يُسألها أن تغمض عينيها.

تتسلل إلى أذنيها تمتماته المكتومة، بين الحين والآخر يسألها أن تهمس بعبارة.. (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد).

تسير على أرضٍ غير مرئية، ممتدة في فضاءٍ غير محدود، أمامها الرضيع، إلى جواره عجوز متغضنة الوجه، شعرها الأبيض يمتد كثيفًا حتى يكاد يلامس كعبيها، على رأسها تحمل أذنين مدببتين.

أشعلت العجوز نارًا تحت الرضيع، تلقي إليها بأغصانٍ جافة ثم تنفخها بقوة، النار تزداد توهجًا وارتفاعًا.

العجوز أم البنين تشير نحوها بعصاها التي تتكئ عليها، باتجاه الداية تحلق العصا، تنهال عليها ضربًا، تجري هاربةً ومن خلفها العصا.

بينها وبين العصا تتجلى أم الرضيع المتوفاة وقد اكتست بالبياض، تنظر أم الرضيع إلى العصا شذرًا، تمسكها بقبضة يدها.

أم الرضيع تسرع نحو أم البنين، بينهما ينهض جدارٌ من العدم، أم الرضيع تستمر في انقضاضتها، تصطدم بالحائط وتفتته.

تنهال على أم البنين ضربًا بالعصا، تنزع رضيعها، تضمه إليها ثم تمنح الداية إياه.

أم الرضيع تتحرك مبتعدة، الداية تهتف باسمها، تندفع في سيلٍ من الكلمات.

***

على صدغيها استشعرت الصفعات الخفيفة، اليد التي تمسح وجهها بالماء، تلتقط أذناها بعض التمتمات الهامسة، تفتح عينيها، تجول في المكان.

- حمدالله على سلامتك وسلامة الولد.... الحمى خلاص راحت.

&&&

بحصاةٍ صغيرة مدببة الطرف رسم على الأرض الترابية لمدخل البيت خطًا، على بعد عدة خطوات منه رسم كذلك دائرة، رصّ كُرَيات زجاجية صغيرة حول محيطها.

على الخط ثبت كُرَية أكبر قليلًا.

غانم عندما يضرب كريته لا يضربها كما اعتاد هو أن يفعل، بل يضم سبابته إلى إبهامه ثم وبجانب السبابة يدفع بالكرية.

يسدد كريته الضاربة نحو باقي الكريات، عيناه تسبقانها إلى الدائرة، تنتظران خروجها وقد دفعت بكرياتٍ أخرى خارج الدائرة.

إلى جوار الدائرة المرسومة في منتصف الشارع يقفون، يلقون بكرياتهم الضاربة نحو الخط المستعرض، كريته الأقرب إلى الخط عند توقفها، تداعب شفتيه ابتسامة خفيفة، سيكون أول المصوبين. يهتف:

– على الإزاز واللي يجي.

تطيح كريته الضاربة بكريتين، يضربها مرة أخرى فيطيح بالثالثة.

يهتف به غانم:

– يا نهار أبوك أبيض.. ده إحنا كده مش هنشوف اللعب.

يصوب كريته الضاربة فيطيح بالرابعة.

يقفز غانم مكانه، ثم يعدو نحو الدائرة، يصيح ضاغطًا على كلماته في شماتة:

– حط كل اللي كسبته إزازتك وقفت على الدائرة.

– لا.. الإزازة بره الدائرة.

– الإزازة على الخط بالضبط .. حتى بص.

يميل برأسه حتى كاد وجهه يلامس الأرض، يضع ما ربحه في صمت، في تثاقل يتحرك نحو الخط المستعرض.

يدركه الدور للعب من جديد، يقذف بكريته، يفوز بكريتين قبل أن تطيش تصويبته الثالثة.

يهتف غانم:

– عليك وعلى اللي يجي..

يزيح التراب حتى تصبح الأرض بين الكريتين ملساء.

يهتف بغانم:

ما فيناش من تنظيف.

يجمع بيديه التراب ليقف حائلًا بين الكريتين.

– حط بس قد اللي كان موجود.

الكرية الضاربة لغانم تتدحرج في خطٍ مستقيمٍ.

رنين الزجاج نتيجة اصطدام الكريتين يكسر صمت الترقب، غانم يقبض على كرية منافسه الضاربة غنيمته، يمد يده الأخرى تجاه الخاسر يتلقى بها ما كان قد ربحه جراء اللعب.

محروس يلقي مخروطته الخشبية الدوارة، تدور في قوةٍ وثبات على سنها المسماري، يعود ليحملها وهي تدور على راحة يده، يمررها بين ساعديه، الحبل الذي استخدمه في رميها يمرره من تحتها. يعقده تحت سنها وهي تدور، ينتزعها بواسطته، تدور حول نفسها وهي طائرة في الهواء قبل أن تستقر على الأرض وهي ما تزال تدور.

***

يحاولون تنظيم أنفاسهم اللاهثة، جاء كالعادة ثانيًا في الجري بعد قاسم.

***

بينهم يجلس، يحاول أن يتداخل بالأحاديث، أن يعلن عن تجاربه، عن سر نبوغه في الألعاب، لا تصريحات إلا للأبرع، لا مكان لمن جاء ثانيًا وإن كان في كل المنافسات.

– هو صحيح أبوك بيلعّب الأراجوز إزاي؟!

يتشبث بالكلمات الموجهة له، يدفع بجذعه ورأسه الملقين في إعياء نحوهم، يدفس رأسه وسط حديثهم،يهتف:

- إيه رأيكم في الأراجوز؟

- حلو.. بس ما قولتش أبوك بيلعّبه إزاي؟!

- إزاي؟ إزاي؟

- أيوه.. إزاي؟!

- مش عارف..

الحوار يتخلى عنه، يفسح المجال للإعياء كي يتملكه، أحلام التدريبات البيتية، المهارة، متابعة الأعين والآذان له.

- شوفتوا الأراجوز لما..

جسده ينطلق في محاكاة لحركات الأراجوز، لسانه يغرد بصوته وعباراته، قلبه يهتز طربًا، عيناه تلمعان، النشوة تسري في أعطافه، العيون كلها معلقةٌ بوجهه وأطرافه.

يد الداية تنتزعه من الحلقة.

- مش نبّهت عليك قبل كده ما تعملش أراجوز؟!

تدفع به نحو البيت.

- يا حبيبي انت مقامك مش كده..

المرة الجاية ما حدش هيحوشني عنك.. هقطّع من لحمك لو عملت أراجوز.

بقيت الابتسامة ماثلة على وجهه، الألسنة تجمد كي تحيط الآذان بخبراته يرويها.

&&&

خلف الصندوق الخشبي أخفى الأب جسده، فقط يده وقد ارتدت الأراجوز برزت من أعلى الصندوق.

يحرك أصابعه وكفه فيرقص "الأراجوز"، يطلق الصيحات وقد غيّر من نبرة صوته، يدير كفه في سرعة فتدور "الشراشيب" المتصلة "بطرطور" "الأراجوز".

الأطفال يغرقون في الضحك دافعين بأجسادهم للأمام والخلف.

في أوج الضحكات ألغى استعراضه، إلى الجانب غير المرئي من الصندوق الخشبي أسند ظهره.

ضجيج الضحكات لم ينقطع عن أذنيه، يميل بجذعه قليلًا، يلقي نظرةً متسللةً على جمهور الضاحكين.

بينه وبين الجمهور كان ابنه، يتحرك مهتزًا مقلدًا "الأراجوز". الضحكات تحيطه.

***

يقف الأب أمام الأطفال وقد أمسك بطبلة أخذ يداعبها بأصابعه.
ابنه الى جواره، اكتسى بقماشٍ أحمر، غطى رأسه "بطرطورٍ" أحمر،
الأب يرقص، يدير رأسه في سرعة وقد انحنى للأمام.

"الشراشيب" المتصلة "بالطرطور" تدور كذلك في سرعة.

الأطفال يغرقون في الضحك دافعين بأجسادهم للأمام والخلف.
البعض تمرّغهم الضحكات في الأرض.

&&&

الثري يمسح على رأس الصغير، الصغير ينكمش في نفسه، عيناه تحتميان بأبيه.

أرسل في طلبهما خصيصًا، صبيٌّ لا مثيل له في طول البلاد وعرضها، "أراجوز" من لحمٍ ودماء، يهز الخصر ويدير الرأس ويدير بلسانه الكلمات فتلين وجوه المشاهدين، تَعمُر بالضحكات، ينكفئون إلى الأمام أو ينقلبون على ظهورهم.

الثري مولعٌ بجمع كل عجيبة، يكدسها في حجرات القصر.

هنديٌّ يطعم الزجاج، يعري ظهره وينام على مسامير مسننة، مغربيٌّ يباعد ما بين ذراعيه وجنبيه فيرتفع عن الأرض بضع أقدام، بدويٌّ يقف على أعلى الجبال ويصيح فيسمعه كل من أقلتهم الأرض ويتقلقل كل من حوتهم في بطنها، عصفورٌ يحلّق للوراء، غزالٌ يبكي بدموع البشر، زنجيٌّ في طول النخيل..

***

الداية سمعت للأب، تقلل وجهها وهي تخبر بالنصيحة.

رزقه وجاله من السما.. بركة دعا أمه وعفافها قعد لها في الولد.. بركاتك يا طاهرة.. هيتربى في النعيم ويتمرّغ في الغالي.. وعدك هيعمله ابنه.. هيكبر وهو بياكل من أكلهم وبيتعلم علامهم.. اتوكل على الله.. هو الخير وربنا قسم له به.

***

الصغير يتشبث به، يبكي في حرقة، الأب يجذب نفسه منه، يعدو خارجًا، الصغير يفترش الأرض، يغرق في نهنهاتٍ مكتومة مُستَلَمة.

تدخل عليه حجرته – الصغيرة ابنة الثري، تجلس أمامه.

– بتعرف ترقص زي الأراجوز؟!

تمسح عن وجهه دمعة منحدرة.

– بتدمّع ليه؟!

يرقص، يهز الرأس والخصر، يغرد بصوت وعبارات الأراجوز.

الفتاة تغرق في الضحك دافعةً بجسدها للأمام والخلف.

قلبه يهتز طربًا، عيناه تلمعان، النشوة تسري في أعطافه.

&&&

يزيح عن جسده نصب اليوم الطويل، بيعه الفول في الصباح، مداعبة عروسه القماشية ليلًا، يتثاءب في تلذذ، بيده ينفض السرير متعوذًا.

***

إمام المسجد يشد على يده.

– حصّن نفسك.. نقّض سريرك من كل شر وانت بتذكر الله.. واتجوز.. اظفر بذات الدين.

***

يستلقي على السرير مباعدًا بين أجزائه، يغمض عينيه.

تتعرى من كل ثوب، تفترشه، مطوقةً عنقه بيديها، تقبّله مبلّلةً شفتيه برضابها.

– تشكوني إلى إمام المسجد..

ينجرف مع طوفان النشوة، يغرق وجهها، عنقها، صدرها بالقبلات، يسترخي، يتركها لتعبث بجسده، تستنطق مواطن الشبق منه، تقوده عبر بساتين اللذة.

***

بنت محمد أبو حسين بكرٌ رشيد، جمالٌ لا يقدر على تشبيهه أو تشويهه أقدر ملكات الجان، رآها بلا موعد فرقصت عروسةُ لها وحدها، اغرورقت عيناها بدموع الضحكات، تسحَّبت من خلف الصندوق الخشبي الذي يخفيه، التقت عيناهما. تضحك في خجل وتعود.

بعد نوم القيلولة سيقصد أباها قارئًا الفاتحة.

***

تلفحه أنفاس الجنية الحارة، تقبِّله وتداعبه.

في أوج الذروة تدفع بلسانها إلى فمه، تسد به مدخل الهواء، بتحشرج، يكافح لأجل الحصول على أنفاس تحفظ عليه حياته، عيناه رجاء وتوسلات. يضربها منتفضًا.

يسكن وقد ارتخ جسده، تنزع نفسها منه وهي تبكيه.

تحترق..

&&&

ينهض من غفوته، على محياه يضحك البِشر، يجول بعينيه في المكان، ينام على ذراع الداية، الغرفة غارقة في الظلام إلا من شمعةٍ متناقصةٍ على البعد.

عيناه تطفحان بالدموع، يد الاختناق تحيط بعنقه.

في منامه عاد أبوه من الموت، شاعت الفرحة في كل الأنحاء. كانوا قد ظنوا خمود الحياة في جسده، ناحوا وانتحبوا، تحرك بينهم من جديد باسمًا، لاعبًا بدميته، راقصًا بصحون الفول.

فتح عينيه فلم تطالع إلا ظلال الموت الجاثم.

لم يشمل الوجه الميت حتى بنظرة وداع، غسّلوه وكفّنوه، ثم استدعوه.

يلهج بالدعاء، عيناه جامدتان على الجسد المسجى وقد تغطى كله وتعطر.

مسحبه حتى القبر، زحام المعزين منعه الوصول إلى حيث يُدفن. لم يوارِ الثرى، الأحضان تتلقفه تباعًا، تحاول تهدئة عينيه المحروحتين، صدره المخزون.

***

يتلمّس مسعاه على ضوء الشمعة، يقلب في حاجيات أبيه، يشتم ثيابه، يتلمس دُفه، يلبس دميته في كفه، يحركها قليلًا، يستخرج "إدرة" الفول، يملؤها بالماء، يسقط فيها حبات الفول الجامدة. يقلب بمعرفة ضخمة.

الداية تتململ، تصحو، تدعك عينيها.

– بتعمل إيه في جوف الليل كده؟!

الدموع الحبيسة في عينيه تفيض.. يكافحها..

– ده الفول.. هابيعه الصبح.. بالليل هرقّص الأراجوز..

– يا حبيبي.. دي مش شغلتك... ما تخلقتلهاش.. أبوك ما كانش عاوزك كده.. كان عاوزك تعلى. تبقى أحسن منه بألف مرة..

لم يقدر على إسكات نشيجه المكتوم المتصاعد. يبكي في حرقة، الداية تجلس إلى جواره تربت عليه.

– وانت بتعمل الفول من غير نار؟!

– أبويا بيعمله كده..

الداية نامت وهي جالسة، تباشير ضوء النهار تسللت إلى الحجرة، بالمغرفة يرفع إليه حبات الفول، صلبة جامدة، الماء السابحة فيه ما زال شفافًا بلا لون.

– مش قلت لك لازم نار..

– طول عمري باقعد جنب أبويا وعمره ما ولع على الإدرة نار.

تساعده في إشعال النار، تسد فم "الإدرة". بين الحين والآخر يرفع السدادة، يضيف الماء ويقلب الفول.

ينفخ في حبات الفول حتى بردت قليلًا، يتناولها بفمه، يمضغها. يمتعض وجهه، الفول ليس كما اعتاده، لا تحمل حباته نفس الطعم والنكهة.

يغرق بدموعه صحن الفول و"الإدرة". صدره يعلو ويهبط بالنشيج، الداية تضمه إليه، تمسح على رأسه.

&&&

ابنة الثري أحاطت عنق أبيها بذراعيها. تدللت عليه ورجته.

أجابها ما سألت، قبّلته ضاحكة، فتبسّم لها وهدهدها.

المتميزون من باعة الفول جاؤوه من كل الأنحاء، وقفوا بين يديه، عن يمينه ابنته، عن يساره الصغير.

كلّ باح بسر براعته..

أولهم وضع في "الإدرة" توابل خاصة.

ثانيهم لا يُنْضِج الفول إلا على حرارة مواقد النفايات، الحرارة تحيط "الإدرة" من كل جانب.

ثالثهم يضيف السمن.

رابعهم يقطّع عليه الطماطم والبصل.

خامسهم..

سادسهم..

الصغير يتذوق من كل الصحون، وجهه يمتعض في كل مرة، لا فول يماثل فول أبيه.

يحتضن الصغير وقد علت وجهه الكآبة، يربت عليه ويصرف باعة الفول.

&&&

الأضواء طلبوها خافتة، شموعًا متناثرةً.

أم الفتاة تضم الدف إليها، إيقاع دقاتها بطيءٌ هادئ، يتحرك لسالها بتمتمات هامسة.

ضرباتها الدف تزداد شدةً وتتابعًا، معها تعلو التمتمات.

صوت الدف يصير صداحًا عاليًا، باعثًا للحرارة والحركة. التمتمات هتافات غير مفهومة تستنطق قوى الكون الخفية، تدعوها لتمثل نورًا وحرارة، حركةً وحياة.

مع فوران الأجساد بطاقة طرقات الدف والصياح تنهض الفتاة، تتحرك بين الحضور، جسدها وقد حررته من سلطان إرادتها، تركته للإيقاع يجتاحها، ترتج على نفسها، تتوحد بكل الكون، حركاته، انفعالاته، أنفاسه، حرارته.

ينسحب النظارة جميعًا إليها.

حركاتها دائبة، اهتزاز ورجفات، ترقص جائلة فيما بينهم، ترفع الرجل، تُدَوِّر الخصر، ترعش الصدر، تهز الأرداف.

الحضور صامتون، ساكنون، في حشاهم تسري الرعدة، عيونهم مُحْوَلّة، منفصلة..

الإيقاع يخفت تدريجيًا، الدف بات همسات، الأهازيج اختلاجاتٌ للشفاه، الفتاة تنحط ساكنة.

أنفاس النظارة رياح وزوابع، صدورهم في صعودٍ وهبوط.

الثري يصفق كطفل يهتف:

– عظيم .. عظيم..

ابنة الثري تسللت لتجلس جوارها.

ضيوف الثري نفضوا عنهم ذهول الامتزاج بإيقاع الدف وخطوات الفتاة، ثرثروا بالاستحسان.

الصبي ينهض يرقص مقلدًا الأراجوز، أم الفتاة تعضده بدقاتٍ على الدف، يدير رأسه في سرعة، يزغرد بصوت الأراجوز.

الحضور يغرقون في الضحك دافعين بأجسادهم للأمام والخلف.

البعض تمرّغهم الضحكات في الأرض.

&&&

الساحر غسل جسده باللبن، أكثر من الجلوس في الحمامات، بعلي من ماء جسده، الجان صيغوا من نار ينجذبون نحو رطوبةٍ تعادل لهيبهم.

يستدعيهم بإشعال شموعٍ سوداء، سكب الدماء، التمتمة بالتعاويذ.

الداية سألته استحضارهم، إطلاقهم صوب الغجرية أم الراقصة. يقتحمون عليها أحلامها ونعاسها، كبير سكان الظلام يخترق صدرها بيده، يحيط قلبها بقبضته القاسية، يحرمه الخفقان، الباقون ينحطون على صدرها يحرمونه الصعود والهبوط، يضغطون على عنقها حتى تحط عيناها، يربد وجهها، يسدون فمها، يخترقون عينيها فتنفقئان، أذنيها فتصابان بالصمم، ثم يمثلون بجسدٍ سكنه الموت.

***

أم الراقصة الغجرية تُوَقّع دفها، ابنتها تهز الخصر وترفع الرجل، الصغير يُدّور الرأس، يهتز مزغردًا بلسان الأراجوز.

الداية تجذب الأراجوز في عنف من الحلقة، عيناه دهشتان متسائلتان، يتملص من قبضتها. يعاود الرقص، ابنة الثري إلى جوار الغجرية، تشارك بالتصفيق والبسمات.

الأراجوز والراقصة ينهيان نشوتيهما، يجلسان متقابلين إلى جوار الغجرية، ابنة الثري تقترب منهما، يطردها الحوار والضحكات.

الداية تضمها إليها، تربت عليها، تنظر للغجرية شذرًا..

***

الساحر يغيب في تمتماته، يهتف بالتعاويذ بصوت يخثر الدماء في العروق، نظر الداية معلقٌ به، تنتظر عودته لدنياهم بالبشارة.

ينتفض جسده، تجحظ عيناه وتَحْوَلان، القيء يندفع من فمه. يغيب عن الوعي.

الداية تهرع نحوه، تحاول إفاقته، الرعب يكاد يصيبها بالشلل، يوقف قلبها الهائج.

الأثاثات تنقلب وتتقذف، الجدران ترتج، الداية تتكور على نفسها، دافنةً وجهها في الأرض.

ممالك الجان الخاضعة لسلطانه تصارعت مع ممالك دانت للغجرية بعهود ولاء، الحرب دارت في كل مكان، في السماء انتشرت الصواعق، البحار اهتاجت قذفت ما حوت من أسماك، النيران اشتعلت في مخازن الغلال، بعض الدور لم تتحمل رجفات الأرض وانهارت.

***

الداية والفجرية تصافحتا، جلستا في مواجهة إحداهما الأخرى محفزتين للانقضاض كفهدتين مشحنتين بالجراح.

يداهما التقتا متعاهدتين، مقاصدهما مختلفة، لا تتعارض، لن تتحرك إحداهما بإفساد تدبير الأخرى.

تتبادلان بسماتٍ مقتضبة، قبلاتٍ باردة.

&&&

– *نلعب* عريس وعروسة.. أنا العروسة وانت العريس.. وانتِ ضيوف الفرح.. تزفينا..

ابنة الثري تأبطت ذراع الأراجوز، استقبلها بابتسامة واسعة وسار إلى جوارها، الصغيرة الراقصة ابنة الفجرية تتحرك أمامهما هازة الخصر، رافعة الرجل، مرعشة الصدر، شاديةً بالأغاني والأهازيج.

***

الراقصة تدخل عليه حجرته، تهز الخصر، ترفع الرجل، ترعش الصدر، تتابط ذراعه وتسير إلى جواره في أنحاء الحجرة وهي تمارس الرقص.

– عندنا في الفجر كل راجل له مراته متجوزها وعشيقته بيروح لها كل ليلة.. مراته قدام الناس.. وعشيقته بيحبها وبتحبه بجد من ورا الناس. تيجي نلعب عشيق وعشيقة؟

تقبله ويقبلها.

الراقصة تهز الخصر، ترفع الرجل، ترعش الصدر، الأراجوز يدير راسه. يرقص مزغردًا.

تتداخل الحركات، الأصوات، الزغاريد.

***

- نلعب عريس وعروسة.... أنا العروسة وانت العريس.. وانت ضيوف الفرح.. تزفينا....

ابنة الثري تأبطت ذراع الأراجوز، استقبلها بابتسامة فاترة وسار إلى جوارها، الصغيرة الراقصة ابنة الغجرية تتحرك أمامهما هازة الخصر، رافعة الرجل، مرعشة الصدر، شاديةً بالأغاني والأهازيج.

في الليل سيأتيها يمارس رقصته وزغردته وتمارس هز الخصر ورفع الرجل.

&&&

يحاول أن يُمسك عليه فلول النعاس، يُحكِم إغلاق عينيه. يستجمع نثرات أحلامه.

المشاهد التي رآها تعبره، لا رابط يجمع شتاتها، شذرات متناثرة فقط.

يزع عنه كل أثرٍ للنوم، أبوه لن يتركه لينتظر طويلًا، بالتأكيد سيأتيه.

***

الفران ما إن نحه حتى هرع نحوه، ضمه إليه في قوة.

– حبيبي يا ريحة الغالي.. ابقى انزل من القصر كتير.. عدّي من هنا كتير.. صحيح اللي خلّف ما ماتش.. الخالق الناطق أبوك..

عينا الفران سيل دموع، الصغير يحاول انتزاع نفسه من حضنه المعروق، رائحة النار في جسده.

– امبارح أبوك جالي في المنام وكلمني عليك كتير كأنه كان عارف إني هشوفك.. كانت صحته كويسة ووشه مورد.. قلقان

عليك.. لما تشوفه سلّم لي عليه كتير وقول له يكتّر زياراته.. أصله بيوحشني.. ومتنساش تطمنه عليك.

أبوه لم يزره يومًا، خَجِل من مصارحة الفران بالحقيقة.

– وانت بيزورك ناس كتير؟!

– الأحباب بس.. آه.. الله يرحم الجميع.

– ولو حبيت حد يزورني ومابيجيش؟

– اللي بتحبهم وبيحبوك وكان عملهم صالح أكيد هتشوفهم، أول ما الواحد بيصحى من النوم بيبقى فاكر لكن بعد كده لو خدته الدنيا بينسى.. أول ما تفتح عينيك فكّر في اللي زاروك..

***

نهض من نومه مشوشًا، رأى أباه كما اعتاد أن يراه دائمًا يبيع الفول، يلعب بالدف، يحنو عليه ويقبله.

استدعوه ليمثل أمام الثري، في حضرته شيخ عجوز.

– ده أعلم أهل الأرض في زمنا .. لف الدنيا من شرقها لغربها.. جهناه يعلم بنتي ويعلمك..

– في البداية لازم يجاوبوا على سؤالي..

الفتاة هزت رأسها في حيرة، الثري توارى في كرسيه وقد جهل جواب السؤال، الصغير تردد كثيرًا، استجمع شتاته ثم أجاب.

العالم حدق فيه ذاهلًا.

كان مشوشًا، وجد الجواب في ذهنه أمام عينيه، لم يكن متيقنًا. أبوه وفي أولى زياراته نقش حل المسألة داخله ليعاجل به العالِم.

***

يفتح عينيه، الابتسام يعمر وجهه، حلمه عَمُر باللذة، بعد أن احتلم فيه، رأى نفسه وقد هرع نحو أبيه وهو يقَلِّب الفول، قبّله وتعلق برقبته، أخبره أنه قد أصبح رجلًا.

يصب الماء على رأسه منتشيًا، يتذكر تفاصيل حلمه ويضحك، وجه أبيه المبتسم، عينيه الفرحتين.

&&&

الداية مدت يدها إلى الفتاة ابنة الثري بصحن الحلاوة المخلوطة بالشطة، الفتاة نقلت بصرها بين الصحن وبين الداية. الداية ربتت عليها قبل أن تبتلع الفتاة ما حوى الصحن دون مضغ وقبل أن يسدوله فمها.

الحلاوة المخلوطة بالشطة مهيجة لنار الجسد، تشعل فيه الحمى.

الداية ملازمة للفتاة، على رأسها تبدل العصابات المبللة بالماء، تنشط من حريقها.

الثري استلقى إلى جوار ابنته، دفن رأسها في صدره، دمعت عيناه، الداية همست:

- هو عشق الجن وعشق الجن يفشل في علاجه الأطبا..

عينا الأب مستفهمتان راجيتان..

جني شرير عشق جمالها.. ركب جسمها وولّع فيه الحمى.

الداية مسحت عرق الفتاة في باذنجانة كانت قد تمتمت عليها. علقتها في عين الشمس.

– قلبها لو اتحرك لشاب زين الجني هيتحسر ويموت.. تبرد ناره ويدبل ومعاه هتدبل البتنجانة..

الثري استلقى إلى جوار ابنته، دفن رأسها في صدره، دمعت عيناه، قلب ابنته لم يتحرك لأيٍّ من الزائرين.

الداية وبعد مرور كل خاطبٍ أو طبيب تمد يدها للفتاة بصحن الحلاوة المخلوطة بالشطة.. تُسِرها:

– هانت بكرة يزورك الأراجوز وننول المراد..

الداية همست للأب:

– أصحاب الألاعيب لو زاروها هيخففوا عنها.

الثري هز رأسه، دمعه محبوس.

الداية وضعت على رأس الأراجوز "الطرطور" الأحمر، اقتحمت به حجرة المريضة. سألته أن يرقص لها، يزغرد بالكلمات. روحها ستحلق معه راقصة نشوانة، تنبث في أنحائها الصحة.

الأراجوز داور بلسانه الكلمات، هز الخصر وأدار الرأس بعد أن انحنى للأمام، "الشراشيب" المتصلة بالطرطور دارت كذلك في سرعة.

المريضة ابتسامتها تتسع، ضحكاتها تزغرد، تغمض عينيها وتنام.

الثري ذاهل، حانق، فقط الأراجوز قدر على إلهاب الجني بنيران الغيرة، تحرك له قلب الفتاة، طالع مع الداية الباذنجانة فوجدها وقد تفحمت بنيران الهوى، هز الرأس مُسَلِّمًا.

&&&

الثري مدَّ أذنه بعد أن جعل من قبضته بوقًا أمامها، استراحت ملامحه للسكون الذي صادفه من خلف باب حجرة الراقصة ابنة الفجرية.

ابنة الفجرية ترقص فتتحرك لها القلوب، تختلج الشفاه بأهازيج لهو ٍ وعشق.

الراقصة تجيد التقافز هاربةً من عناق العيون.

الثري انحنى على الراقصة النائمة، قرّب شفتيه من شفتيها حتى لامستا، اشتهى تذوق رضابها، فغمس شفتيه في شفتيها طويلًا وعميقًا.

الفتاة فتحت عينيها، جفلت وارتجفت، انتفضت نازعةً نفسها. ابتعد عنها، ثم اقترب مهدئًا مواسيًا.

ضمها إليه فانزلقت من بين يديه، انكمشت في ركن الغرفة، شرعت أظفارها، هددت بالصراخ.

***

أم الفجرية ناقمة مهتاجة:

- جالك لحدك واتمنعتي؟!

تزفر في ضيق:

- الأراجوز اللي منعتي نفسك عشانه مش من بختك..

&&&

الداية ضمت الأراجوز إليها، اشتمت في جسده رائحة الغادة الراقصة.

-- بنت الثري عينها منك وانت ما تتعيّبش!

- أنا رايد الرقاصة بنت الغجرية..

***

المشمش فاكهة عزيزة، مواليده أعزاء، تغوي الدنيا سكانها بحبهم، تسعى الفتيات للسقوط في شباكهم وإن كانت مطوية، متى سألوا الرواج اختاروا من كان نسبها في السماء.

الداية قبضت على صدرها حتى تثبت قلبها.

راجعت كل الأقوال ووصايا الجدات.

من كان نجمها نجم نحس تعثرت بمولودٍ حرباء، يضل طريقه ويضلهم معه.

الصبي حرباء.. أرادت أمه وحم المشمش فأطاعها إلى ما سألت وتلهّف على المشمش، وإن لم يجب طلبه لجاء إلى الدنيا منكودًا محزونًا بمشمشةٍ على فخذه، تتغير في الحجم وتنضج في كل موسم.

الصبي حرباء.. أرادته الراقصة بلا طعمٍ أو لون كحنظلٍ فأطاعها وأحبها، من أراده مغرورًا متوردًا كتفاح، مرًّا صعب المراس كعلقم، حلو الحديث كشهدٍ.. سيطيعه إلى ما سأل.

***

الداية ضمته إليها، تركت دمعاتها الحارة المختلقة تصيب وجهه، وتتناثر عليه.

– بنت الثري جسمها شف.. مستنية الموت!

سحبته من يده، سخرت من تحذير الجدات.. قلب الحرباء ملك يمينها ستمنحه اللون الذي تريد، ستصبغه بطيبة الخس وتزوجه الفتاة،

&&&

كل من أجاد بدعًا جاء متبخترًا، الحواة وحيّاقم ونيرانهم التي يلعنون، مدربوا القردة على القفز والرقص وتلبية النداء وتقليد عجين الفلاحة ونوم العازب، رجال وفتيات يمشون على الحبال، عائلة تقف على الزجاج، لحاء الأشجار، الحديد، القادرون على الاستلقاء فوق مسامير مسننة، القافزون خلال النيران، الساحرون بالغناء والساحرات، مقلدو زغردة البلابل والكناريا والكروان.

الراقصة ابنة الغجرية هزت الخصر، رفعت الرجل، أرجفت الصدر، جالت ببدعها في كل الطرقات، رقصت تحت كل الزينات. بين يدي الأراجوز وعروسه استولدت كل مهارة.

وسط تلويات جسدها هاجمت بعينيها عيني الثري.

وجهها دعاء..

الثري اقتنص نظرتها، بادلها بأخرى فهمة.

ابتسمت له، داعبته بحركة فمها.

***

الثري غلّق من خلفه الأبواب. بيده امتحن ليونة أجزائها البكر تدللت وتمنعت، ثم خضعت لمعابثاته.

افترشها.. وجهها رضا، لذة، نشوات.

نزع نفسه عنها فزعًا، كذّب ما وجد، أعاد افتراشها، امتحا موضع عفتها. نهض عنها ساخطًا، متجهمًا. قذف اللعنات، السباب.

بين نهنهات ودموع باحت بالاسم، الأراجوز غرّر بها، اشت زهرتها، قطفها من عنقها، نزع عنها أوراقها، تركها عريانة، ترتجف.

&&&

دارت عيون ملاك الموت في محاجرها، عيونه بعدد الأحياء، كلّ منها شاخصة نحو من وُكّلت به.

والدا الأراجوز هرعا نحو ملاك الموت، بحثا بين العيون، انقضا على إحداها، أنفاسهما أشقاها الجهد.

على العين اللامعة الواسعة انعكست صورة ابنهما يطعم مع الثري هادئًا، مقرور العين والفؤاد، الثري يدس له السم، ملامحه شابها لهيب الانتقام، فوران دم السخط، الأراجوز ممسك ببطنه، يتلوى، ملامحه صهرها الألم، سكنت حركته بعد أن غمره القيء.

والدا الأراجوز أمسكا بجفن العين المُوكّلة بابنهما، حرماه الانطباق الذي تحرك له.

سمحا للعين ببعض الانغلاق حتى تلاشى صعود وهبوط صدر ابنهما، لكنهما حالا دون تمام القفول.

***

على القبر وقف أصحابه وندماء أبيه، أيديهم نحو السماء، قلوبهم منخلعة، يلقنونه الشهادتين وجواب أسئلة الملاكين.

الداية حسرت غطاء الشعر، ناحت، شقّت الثوب، أهالت التراب على رأسها، الثري محتضن ابنته، يربت عليها، يحول دون خروج أحشائها مع صرخاتها بدفن فمها في صدره.

مع تسلل الليل انصرف الجمع عن المقبرة.

•••

والدا الأراجوز باعدا ما بين الجفنين، أجبراهما على الانفتاح.

الأراجوز شهق وانتفض، فتح عينيه.

حبيس طيات الأقمشة أخذ يتلوى، لا يصطدم في محاولاته للخلاص إلا برفات بشرية، صرخاته مكتومة، حبيسة الكفن، ظلمة القبر، سكون المدافن..

&&&

ابنة الثري رفعت كأس السم إلى فمها. شَربت ما حوى.

قبل أن تتعلم النطق رفعوا إلى فمها الكأس، تذوقته، صرخت وأبعدتها، قطّروه في فمها.

***

أضافت الماء إلى جرعةٍ خلّفتها في الكأس حتى امتلأ.

قبّلت الأراجوز، رفعت كأس السم المخفف إلى فمه، امتعض لمرارته، نحّى يدها.

جرعات السم المخلوطة بالماء يزداد تركيزها بالتدريج، مع الزيادة تزداد المرارة وتنمو في الجسد المناعة.

قبّلته، بأطراف أصابعها داعبت شفتيه، رفعت إليه الكأس، أخفت مرارتها في حلاوة رضابها، مسحت بيدها على شعر صدره وابتسمت،

&&&

جبلاوي حافر القبور يتأمل التراب أمام كل مقبرة، متى وجده ندِيًا، متخلخلًا، معلنًا عن زائرٍ جديد أنزل الشعلة، رفع المعول، هوى به على الأرض حافرًا.

يزيل التراب عن مدخل المقبرة، يحمل شعلته، يدنيها من جوف القبر المفتوح، يمد بصره، يزحف داخلًا أو يسحب الجثة الطازجة خارجًا، عنها يخلع أثواب الكفن. في عناية يطوي الأثواب ويرتبها.

زائر القبور أدنى شعلته من مدخل القبر الجديد، مدَّ يديه ليسحب الجثة إليه، ارتد إلى الوراء في عنف وقد جحظت عيناه وبهت لونه. اخترقت أذنيه أصوات الصرخات، الآهات.

بثباتٍ أمسك بالشعلة، أنار بها ظلمة القبر، تفحص الكفن المتحرك بما حوى من جسدٍ ميت، أنزل الشعلة، جذب الجسد إليه خارجًا، قاوم محاولاته التملص، صرخاته، نزع عنه أثواب الكفن.

جبلاوي، حافر القبور، وبعد أن طوى الأثواب ورتبها لاحت منه التفاتة إلى الجسد المنكمش العاري المرتعد.

قذف له بثوبٍ واحد من أثواب الكفن كي يستر بها نفسه.

حافر القبور حمل شعلته مغادرًا المكان، تبعه الأراجوز محاذرًا. التفت إليه حافر القبور محذّرًا، متوعدًا، لاعنًا، الأراجوز لم ينثنِ عن تتبع خطاه، حافر القبور أمسك به، دفعه أمامه مُسَلّمًا، صدّ بدفعاتٍ من معوله هجمات الكلاب له.

***

بين المقابر سار الأراجوز يتأمل التراب أمام كل مقبرة، متى وجده ندِيًا، متخلخلًا، معلنًا عن زائرٍ جديد أنزل الشعلة، رفع المعول، هوى به على الأرض حافرًا.

يزيل التراب عن مدخل المقبرة، يحمل شعلته، يدنيها من جوف القبر المفتوح، يمد بصره، يزحف داخلًا أو يسحب الجثة الطازجة خارجًا، عنها يخلع أثواب الكفن، في عناية يطوي الأثواب ويرتبها.

للمتوفاة وجهٌ شابٌّ حسن، زاده ضوء القمر وضاءةً، مسح على وجهها، عبث بشعرها الناعم، اقترب من شفتيها الدقيقتين بفمه وطبع قبلة.

بعد أن نزع عنها كل أثواب الكفن تأمل عريها، قوامها، اقترب منها، ألهب وجهها بأنفاسه، استشعر أنفاسها على بشرته، عانقها حتى سكنت طراوتها صدره..

أعادها إلى جوف القبر ثم سد مدخله بعد أن ودع عينيها الوسنانتين..

&&&

الشيخ الأعمى يمرجح جذعه للأمام والخلف، رجلاه مطويتان تحته، ذراعاه متشابكتان أمام صدره، بصوت أوهنه العجز، أثار فيه الدخان الحشرجة يعالج النهنهات من حوله بآيات القرآن، مع الكلمات يقذف بقذاه، يصيب كل من اقترب منه.

الصرخات حبسها الذكر في الصدور، صفية بين آية وأخرى تطلق تنهيدة مكروبة، صيحة أليمة.

الشيخ ختم تلاوته لتندفع صفية في البكاء فلا تجف مآقيها، حولها النسوة متشحات بالسواد، جفت عيونهن، تقرحت أجفانهن، كادت مآقيهن تدفع بالدماء.

يتحرك لسانها بالبيان، تبدع في صوغ العبارات، مزجها بنحيبٍ ممحون.

الكلمات تستدعي مياه العالم، ثلجه، بَرَده، تغسل سيرة الميت فتلألأ كالماسِ مصقول.

بُدِّل دارًا خيرًا من داره، أهلًا خيرًا من أهله، رفقةً خيرًا من رفقته.

الشيخ الأعمى تنحنح ثم دعا..

في الأرض ثعبان يقال له الأقرع يضرب بذنبه إلى سابع أرض، في السماء نارٌ مسعّرةٌ لا تطفئها إلا دموع استرزال الرحمات، في الأرض مثقالٌ من رحمة الإله دفعه في قلوب الخلق، وفي السماء تسعة وتسعون، متى تحرك المثقال في قلوب العباد استجابت السماء بالتسعة والتسعين الباقيات.

الملائكة طوّفت طويلًا من حولهم. باركتهم وصنيعهم. حملت كلماتٍ من نور، مشاعر، رجفات سكبتها في ميزان المتوفى.

النسوة غادرنها وقد شخصت عيونهن بالرجاء، خالطت ضحكات البِشر دموع لم يجدن سبيلًا لكبحها، كبيرهن دست في يديها النقود، ناولتها لفافة من مخبوزات وطعام.

صفية داعبت أوتار صوتها، ضبطت طبقته، هتفت بابتهالٍ منغوم.. وقعه سكون وخشوع.

&&&

صفية فتحت الباب لأخيها في جوف الليل، ارتدت عنه، أخوها حاملٌ للشعلة، بساعده تشبث جسد عارٍ إلا من ثوبٍ أُخفي به ما يعيب، يرتجف من البرد.

– لقيته مدفون بالحياة.. دلدل لسانه ومشي ورايا زي كلب جربان اتمدت له يد ببق مياه.. مصايب بتتحدف.. بلوته كبيرة اللي تخليهم ينتقموا منه فيدفنوه حي..

لقمته صغيرة مرتجفة، تبحث طويلًا عن فمه المتجمد.

– شوفي له هدمه وحضري له نومه.. هنسربه مع الفجر.

***

استيقظا ليجداه منكمشًا على نفسه، جسده يرجف، اشتعلت فيه نيران الحمى.

صفية أحاطت رأسه بقماط غُمس في الثلج تحارب به ألسنة اللهب، كلامه هذيان عن قصرٍ وثري..رقصات وغجرية.. سم وظلام ورجال ذوي كرامات.

***

حملت صفية الطعام للغريب، تركت باب الحجرة من خلفها مواربًا، في ركنٍ مظلم جلست، تتسلل بعينيها متأملةً إياه.

في تؤدة يرفع الطعام إلى فمه، يأكل لقيمات صغيرة، يمضغ وفمه مغلق، عيناه شاردتان، ينهض لها إذا أقبلت متحاملًا على وهنه متعثرًا في ثوبه، فلا تملك غير الابتسام.. يتحاشى النظر إلى عينيها.

صفية تمسح على رأسه تحدثت عنها وأخيها، الأراجوز يتحدث عنه.. عن أبيه والقصر.

***

حمرة الصحة تعمر وجهه.

الأراجوز داور بلسانه الكلمات، هزَّ الخصر وأدار الرأس بعد أن انحنى للأمام، صفية تسكن وجهها ابتسامة واسعة وقد غمرتها النشوة.

&&&

الأراجوز انتفض من نومه فزعًا، يد زائر القبور انغرست في صدره، هزّته لتنتزعه من عوالم النوم الحالمة، رفع عنه أغطية الفراش، ارتجف جسده للبرد الذي صادف، انكمش في نفسه، زائر القبور ألقى إليه بثوبٍ ليندس جسده فيه.

زائر القبور ممسكٌ بشعلته في يد، يدفع الأراجوز بيده الأخرى. الأراجوز يتلفت حوله، يشد ثوبه عليه وكأنما يتدثر به وقد ضم ذراعيه إلى صدره.

زائر القبور يمر بين المقابر، يتأمل تربتها، يختبرها بضربات قدمه لها، تبرق عيناه، يدفع للأراجوز بالشعلة، معوله يفتح طريقًا نحو دخولها.

يمسك الشعلة من الأراجوز، يدفعه نحو جوفها، الأراجوز جامد مكانه، يحاول مقاومته، ينكفئ على وجهه ويدخل، يعدو مسرعًا إلى الخارج.

حافر القبور يدفعه من جديد، الأراجوز يتحرك في تؤدة نحو الداخل، مقلتاه متسعتان، أوتاره مشدودة، أعضاؤه راجفة.

يتحسس بيده أقرب جسد إليه، يستعين بيده الأخرى ليجذبه إليه خارجًا، يحاول بلع لعابه الجافّ، يعمد إلى فك أثواب الكفن، حركة يديه وأصابعه المرتجفة تعقد أكثر مما تفك، حافر القبور يمد له يد العون.

***

صفية أسرعت نحو الحجرات الداخلية، جاءت بالأغطية، أحاطت بها الأراجوز بعد أن أرقدوه، جسده يرجف، يطالب بالمزيد من الدِّثر.

صفية مسحت على رأسه، دفعت إلى شفتيه بحليبٍ ساخن.

- الكفن مش هينفعهم بعد موتهم في حاجة.

***

مع حلكة الليل يخرجان، يقتسمان المدافن، الأراجوز يسعى نحو الشرق وحافر القبور نحو الغرب، يفتشان عن أرضٍ ندية، تربة مخلخلة، أيديهم تسحب الجثث الحديثة، تنزع عنها أثواب الكفن، قبل حلول الفجر يعودان وقد أثقل النعاس أجفانهم.

&&&

الأراجوز حمل اللفافة بين يديه، وقف خلف صفية أمام الباب، كانت قد ملأتها ببيضٍ ولحم وجبن وخبز وخضر.

صفية طرقت الباب قبل أن تدفعه ودون أن تنتظر إجابة، كشف عن عجوزٍ نحيلة جالسة في الركن، تضم عصاها إليها وقد ابتلعها الظلام، وجهها سكنته التجاعيد، عيناها غائرتان، تحركت شفتاها ببضع كلمات فكشفت عن تجاويف مظلمة خلّفتها أسنانٌ متداعية.

– مين؟!

صفية تحركت صوب العجوز، جلست قبالتها القرفصاء، العجوز مدت يديها المرتعشتين، جالتا في وجه صفية.

العجوز ابتسمت، احتضنتها بأقوى ما استطاعه وهنها.

– معايا ضيف..

صفية حملت عن الأراجوز اللفافة، سحبته من يده، أجلسته في مواجهة العجوز، قادت يدها إلى وجهه.

***

العجوز علّمتها استدعاء الدموع، تهديج الصوت، مناجاة الموتى، دفع الأحياء للولولة والتذكر، وسط النهنهات تتشبث بالرجاء، تستنزل الرحمات..

صفية، وبعدما ناحوا على أمها، أسكنتها العجوز معها، أخفت عنها حركةً ليليةً، سددت إليها صفية عينًا باحثةً وقدمًا متسللة، عملها لا يتم إلا في ضوء شموعٍ سوداء، تمتمات، تعاويذ سرية، نتاجه قصاصات ورقية تمد بها يدها للمغسل ليضعها تحت ألسنة الموتى، فلا يقدر حتى الجان على الإتيان بها.

صفية حملت عليها وسط عملها فانتفضت، عنّفتها العجوز عندما سألت فن السحر، بكت بين يديها وأصرت على الرفض، لم تتحدث بكلمة، أشعلت النار، ألقت فيها بالشموع.. التمائم.. خصل الشعر.. الصحف.. قطع الملابس..

العجوز ضمتها إليها فاستراحت إلى صدرها، شعرت صفية بقطراتٍ حارة تصيب وجهها، رفعت رأسها نحوها، لمحت الدموع في عيونٍ محمرة.

***

العجوز أشارت لصفية فأشعلت الموقد، وضعت عليه الإبريق بعد أن ملأته بالماء وأسقطت فيه ورق الشاي.

البخار اندفع هائجًا من فوهة الإبريق، يرتفع نحو سقف الحجرة قبل أن يتلاشى.

العجوز شخصت ببصرها إليه..

– بايدي أجوز أشرف بنت في البلد لمارد يجامعها عند كل صلاة.

تندفع في ضحكٍ صاخب.

– كل ولاداتها سَقْط جني سَكّنته بيت الوِلد.. أمرته ما يثبتلهاش نطفة!

العجوز الساحرة حررت خصلها البيضاء من تحت غطاء الرأس، مشطته، بدت وكأنما تنظر لمرآة وتتزين، تغمز لنفسها وتتدلل.

هتفت:

– غربان تنقر في الراس تورث الخرف.

صفية أسرّت الأراجوز.

– زارت الكعبة للحج ولما بصت لها ما شافتهاش.. ساعتها اتضبب بصرها ورجعت زي ما انت ما شايف.

***

صفية والأراجوز جلسا في الركن صامتين حتى التفتت إليهما العجوز.

الأراجوز هز لها الخصر، أدار الرأس بعد أن انحنى للأمام، داور بلسانه الكلمات، صفية تربت عليها وتطعمها.

&&&

الأراجوز وعن الجثة الطازجة ينزع أثواب الكفن، يداه حاذقتان، أذناه مرهفتان تستطلعان أي حركة تقترب، روحه عقدت صداقات مع حيوانات الليل الشاردة، تعاهدوا على عدم الإيذاء.

طالعه الوجه من تحت طيات الأقمشة، توترت ملامحه، شملته الرعدة، اعتصر مآقيه لتحبس فيضانها، رغمًا عنه تسللت دمعة ساخنة على وجنته، سقطت وأصابت الوجه الميت للداية.

ضم الداية إليه وقد أجهش في البكاء.

يدٌ قاسيةٌ تحيط بعنقه تمنع عنه الهواء، غصة تجرح حلقومه، ينازع ليحصل على أنفاسه، يجبر روحه على عدم مغادرة جسده مع ثمنهاته.

يتحامل على آلامه، يحبس دموعه، يمسك بأطراف أثواب الكفن ليعيد لفها، عن وجه الداية يمسح دموعه التي سبق وأصابته بلباسه، عن الوجه تُكشط طبقة من معجون.

الأراجوز يحدّق ذاهلًا في الوجه وقد حُبست أنفاسه.

ما إن يعلو البكاء وصرخات الحداد حتى يُنادى في طلب الحانوتي، يُحرر المتوفى من قيد الملبس، يغسل عنه كل درن، يُطهِّر أحشاءه.

يتيقن من أن وجه المتوفى ضاحك بسام، بعض الوجوه مسودة، كظيمة.

من جيوبه يخرج العطور والدهانات، يحيل سواد الوجه وضاءةً واستبشارًا، بحجرٍ أحمرَ يرسم على الشفاه البسمة، بمزيجٍ مخصوص يمنح الوجه تورده.

بزيت الكافور يعالج الجسد المسجى، يمسح على جبينه بالمسك، يلفه في أثواب الكفن.

فقط الرأس بارز، الأهل يمرون يغسلون الرأس بالدموع ويقبلون الجبين.

وجه الداية مُسْوَدٌّ من تحت المعجون، قسماتها مشدودة.

***

طرقات الأراجوز على الباب جزعةٌ، عنيفة، صفية فتحت له، أزاحها عن طريقه ودخل.

زائر القبور سار على خطى عودة الأراجوز المهتاجة، عن جثة الداية الملقاة خارج مدفنها نزع أثواب الكفن، أعادها موضعها ثم أهال التراب على مدخل القبر.

&&&

التهليل والتكبير رعودٌ تقذفها الحناجر، تهز الفضاء قبل أن يعلو الهتاف.

– الجنازة صامتة..

جميعهم في حللٍ بيضاء، يتسابقون على حمل الخشبة، يهرولون وراءها، يتبادلون أماكنهم تحتها وعلى أكتافهم.

الأراجوز يرقب موكبهم وقد سد الأفق، البعض انكفأ على الجانبين، صدورهم في صعودٍ وهبوط، أرجلهم أعجزها الإسراع. البعض منقاد شاخص، لا يلتفت، في سعيٍ حثيث.

النعش بدا وكأنما يرتلق، لا يحمله أحد، يعرف وجهته، فقط يتبركون بملامسته، يتصارعون لأجل نيل الخيرات.

الموكب يمر بالأراجوز، شعر بالرجفة في قلبه، راحةً ورضًا، قطرات دمعٍ تبلل عينيه.

الأراجوز ومن خلفهم سار، تخطّى الرقاب حتى يشهد نزول الجسد القبر، لا يكاد يتخطى صفين حتى كانوا قد انتهوا وجلسوا للدعاء.

انصرفوا وبقيَ اثنان يلقنان المتوفى الشهادتين..

– مين ده يا شيخنا؟!

– عبد من عباده خد بإيده المولى للطريق..اختار دفنته هنا لأجل ما تعمر الأرض دي ببركته.. سافرنا بلاد وراه.. مدد.. مدد يا مصطفى مدد..

***

الأراجوز يقترب من مضارب خيامهم، يجتاحه الذكر، أجسادهم تتمايل على وقعه.

سيبقون حتى تمام بناء الجامع والضريح.

الأراجوز يلقي بنفسه في دائرتهم، يردد الأذكار من خلفهم، يتركها لتجتاحه وتسكنه، يتمايل وإياهم، يطلق لجسده العنان، يستشعر روحه تطوف من حوله، تسكن كل شيء، الأجساد تتمايل أسرع، تعمرها النشوة، البعض يسقط تحت تأثير الشبق.

الأراجوز يهز الخصر، يدير الرأس بعد أن انحنى للأمام، يدار بلسانه الكلمات، يسقط، يتمرغ في الأرض، يعاين النور، يفتح له ذراعيه، يمر إليه بصدره.

&&&

الأراجوز يسعى بين المقابر، الشمس في وسط السماء، يطالع شواهد القبور، يسأل ويستفسر.

الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء.

للصالحين وجوهٌ بيضاء، قسماتٌ مسترخية.

أبوه دُفن في أحد القبور.

سيقرأ له فاتحة الكتاب، سورة الملك، يسترزل له الرحمات.

ليلًا سيفتح قبره.

قبور الصالحين واسعة، منارة، ضمتها للمتوفى لا تسحق عظامه.

لا يجد سبيلًا لقبر أبيه، يجتاحه الاضطراب..

يسرع الخطى، يسابق الشمس الغاربة.

&&&

وقفوا يتبادلون النظرات في سكون، صفية أول من تحرك، غابت قليلًا قبل أن تعود، بين يديها حملت أغلى أثواب الكفن، أخوها انتزعه من فوق جسدٍ عاش منعَّمًا، احتفظا به دون بيع.

زائر القبور ثبت عينيه على عينيها، أخفضت بصرها هاربةً من بريق عينيه المتسائل.

مدت يدها له وللأراجوز بالثوب، عليهما أن يدسا فيه جسد العجوز الساحرة قبل أن تحملها الخشبة.

***

جبلاوي زائر القبور يضرب الأرض بمعوله في سرعة، يتلفت حوله، تَخفّى في ليلةٍ غاب عن سمائها القمر، التحفت فيها الأرض بالسحب، يستخرج جثة العجوز الساحرة، ينزع عنها الكفن الغالي.

باغتته الدفعة، سقط على الأرض مفترشًا التراب، الأراجوز قفز على كتفيه.

رفع رأسه، نظر إليه شذرًا، يتم عمله، يستكمل نزع الثوب، الأراجوز انقض على يديه، أحاط ساعديه بقبضتيه، زائر القبور دفعه متخلصًا منه، ضم قبضته في غضب، انهال على الأراجوز ضربًا، الأراجوز تكوم على نفسه، زائر القبور علاه بجسده، يوسعه لكمًا.

الأراجوز ينهض، تصطدم رأسه بوجه زائر القبور وأنفه في قوة، زائر القبور يترنح، الأراجوز يغمض عينيه، يضرب بيديه كل ما تستطيع الوصول إليه، يسقط زائر القبور ويسقط الأراجوز عليه، لا يتوقف عن تسديد الضربات.

الأراجوز يعيد جسد العجوز وقد لفه الكفن إلى مثواه، يسند ظهره إلى شاهد القبر، أنفاسه متسارعة، تقع عيناه على زائر القبور وقد سكنت حركته وتدمم وجهه.

***

توالت نداءات الأراجوز على قطب المشايخ العارف بالله، خرج إليه من خيمته، من لحيته يقطر ماء الوضوء.

قام الليل من خلفه، عند آذان الفجر صلى في الصف الأول.

– اخترت الطريق.. وهارحل معاكم عند أول شروق..

&&&

صاحب الكرامات وقف للصلاة، من خلفه وقف المريدون.

صاحب الكرامات ترتفع يداه لأذنيه، إمامه خلف حلمتيهما، يكبر للإقامة، ترتفع أيدي المريدين. تكبيرات الإقامة مدوِّية.

حول الجامع ارتفعت عشرات الأيدي، عشرات التكبيرات.

جنده من الجن المؤمن بعد أن ملؤوا باقي صفوف الجامع وسدّوا كل الفرج، فاضوا عن الباب، أنشؤوا الصفوف خارجه.

صاحب الكرامات يرتل أناشيد الذكر فتأرجح الأجساد نشوانة. جيوش الجن تطوف، تتمايل، يسكنها الوقع والمعنى.....

يحملون العهد، يسعون في مناكبها، ينجذب إليهم من صفت نفسه.

الأراجوز وقف من خلفه للصلاة في الصف الأول، تغنّى بالذكر.

***

صاحب الكرامات وبعد أن سلّم التفت، نظراته صادفت باب الجامع، عيناه جحظتا، حدقتا ذاهلتين..

ملأت الأفق صفوفٌ من جانٍ لا يحيط بها البصر، جلسوا للتسبيح يرتدون الخضار، أسلحتهم من دروعٍ وأسنةٍ تلمع تحت وهج الشمس، تمحمة خيولهم رعودٌ مرجفة.

يطاردون جنًّا يسكن الأرحام، يمنع ثبات النطف، يقذف مع ماء الرجل فتتشوه النطفة المتخلقة، يسري في الدم موسوسًا، يركن إلى الحشا ويسد منافذ السم، فيَهِن الجسد وتصفر العينان.

الجيوش المؤمنة المحاربة – مرتدو الخضار– تصرعهم بالسيف والأسنة، من استسلم يجرونه إلى جزيرة في عرض البحر، يُحبس فلا يرى النور حتى يؤمن.

صاحب الكرامات أدنى الأراجوز منه، ضمه إليه.

***

جيوش الجن المؤمنة المحاربة أقسمت على خدمة أوامر الأراجوز.

سبق وتبعوا شيخًا جليلًا، في وجهه الهيبة، كلماته مطاعة، قبل وفاته أخذ عليهم العهد، بموته ستنطفئ شعلته، زوال النور اختلال لن يكون، منها ستنطلق شظية تدفع شعلة فتية للتأجج، صاحبها الأراجوز وريث كراماته، له الأمر وعليهم الطاعة.

صاحب الكرامات ضمه إليه، قبل جبينه، تركه يلثم يديه تبركًا. أعلنه ابنًا له، لم يقذف نطفته ولم تَهِن بحمله زوجته.

للأب ابنه وماله وما كسب..

***

صاحب الكرامات يأمر فيطيع جانه وجيوش جان الأراجوز، ما كان لأحد تحت إمرته أن يخرج محاربًا، من حمل سلاحًا من جيوش جان الأراجوز أمره بحطه، جميعهم يرتلون الأناشيد، تتأرجح أجسادهم، يسكنهم الوقع والمعنى، يحملون العهد ويسيرون في مناكبها، ينجذب إليهم كل من صفت نفسه.

&&&

الفتاة ابنة صاحب الكرامات تلقف اللحن، تميل بجسدها للأمام والخلف، رأسها يرقص بين كتفيها، وقد انسدل عليها خمار أبيض، تغمض العينين، وجهها رسمٌ للمعنى، تغرد بالأنشودة، خلفها يرددن الغناء.

في جانب النساء من صحن المقام تجلس، يجلسن من حولها، الألسنة تتذوق كلمات التسبيح قبل أن تنطق بها، في الصدور ترتفع حرارة الذكر، صوت الفتاة أوضح الأصوات، توسط الحلقة، وتبعنه جميعًا مطوفات من حوله.

من عينيها طفرت الدموع، سالت على وجنتيها، حاولت حبسها فلم تنحبس، عيناها بكتا روحًا لم يتمكن صاحبها من الخلاص بها، سقط وإياها في السعير، جارهم قتلته زانية وهو عارٍ لتسرق كل ما ملك.

دموعها غسّلت الميت، توسلت بالسماء، عرش المنان.

رحمته وسعت كل شيء، غفر للميت خطاياه.

الفتاة تستحق منازل الأولياء العارفين، وجب لها الكشف.

***

صغيرةً لعبت مع ابن عمومتها، اشتد عوده، ثبتت خطوته، حميت أنفاسه، بين يديه نمت أنوثتها، جسدها يرجف أمام نظراته البراقة، اللامعة.

أبوها صاحب الكرامات ضمها إليه في قوة، أصابعه تمسح دموعها، ابن عمومتها تخطفت روحه شياطين الوباء.

قد آن لها استبدال هواها بعشقٍ يذوب فيه العاشق في معشوقه، ينتشي العبد بفيض الحلول.

عهد أخذه سبحانه على نفسه مع بكائها جارهم، ربط بخيوط الحب بين قلبي أبناء العمومة، وقبل أعوام من قسمه بالعهد.

***

الفتاة ذاكرة، ساجدة، شاكرة، حبيبها وسع الكون، عيناها شاخصتان صوب السماء، قلبها يلهج بالثناء.

في وسط الحلقة يجلسنها، تتغني بأشعارٍ أوحى لها بها الحبيب، تفرد باللحن، من خلفها يرددن، أعينهن شاخصة، أرواحهن تجوب السماوات والأرضين منشغلة بمناجاة الحبيب.

&&&

الأراجوز يختطف الأطوال الخشبية المستطيلة، حولها لفات الأقمشة، يُقلّب الطول الخشبي بين كفيه، ينقله من يدٍ إلى أخرى، يفك عنه بعض طيات القماش.

يمرر يده على المخمل المبسوط الحرير، الكتان، القطيفة، الصوف، الوبر..

على وجهه وفي عينيه يتبدّى إحساسه بالملمس، عيناه تبرقان، تقصدان أعين الزبائن المتعلقة بشفتيه، يهمس مزغردًا بصوت الأراجوز.

– قماش يلف القوام.. مجسم ومكسم.. للبكر يبقى هتعدل وتتجوز.. للست يعجب اللي قانيها.. يحطها في عيونه..

أعينهن تلمع، ابتسامته الواسعة تدغدغ بسماتهن.

يتعمدن المرور من أمام متجره، يلقين التحية ويدخلن، يجلن بنظراتهن في البضائع، يتدللن، يبتسمن، يتمايلن، يلقي الطرف، يحكين فيجيد الاستماع.

الأراجوز يداور بلسانه الكلمات، يهز الخصر ويدير الرأس، يضحكن حتى تدمع عيونهن.

الأراجوز يردد كلمات الذكر، الأوراد، يهز الجسم منتشيًا بالحضرة.

يسكن خيالاتهن، يستعجلن البكور للمرور به.

&&&

تتشدق بالعلكة، ضحكاتها مجلجلة.

الأراجوز مد أمامها أمتار الأقمشة، حركت يدها عليها في دلال، مشت تتمايل، تتعقبه وهو يحضر الأطوال الخشبية من على الأرفف، تتظاهر بمعاونته لتلفح أنفاسها وجهه.

غمزت له بعينها، ضمته بجفنيها. هدّجت منها الصوت، خضعت له بالقول، دعته إليها بحركة شفتيها، بحسن فالجها، بمضغها العلكة.

الأراجوز يُحدّث عن الأثواب، يده تمر على مسطحه ليسكنه الملمس، فيبوح بسر جودته.

يدها تمررها كذلك على سطح الأقمشة، يدها تلتقي يده، تلقفها. يسكنه دفؤها ونعومتها للحظات، ينزع يده وقد تسارع نبضه.

الأراجوز أُسقِط في يده، توقف عن الرقص، الغناء، هز الرأس، الزغردة بالكلمات. ينكمش في نفسه. تضحك..

قص ما طلبته من أمتار، لفها في الورق، ناولها اللفافة، وقد انفرجت أساريره.

تتلوى في نعومة، تسأله أن يتبعها بحركة أجفانها، التماعة عينيها.

زارته في المنام، في الصباح سكب على جسده المياه الدافئة واغتسل.

عيناه تدوران في زبائن المتجر في سكان الحي، تبحثان عنها.

&&&

الأراجوز يدور بعينيه، يطالع كل ما يحيطه، الجدران الباهتة، سجادة الصلاة المفروشة على الأرض، ألواح آيات القرآن المعلقة، الكراسي العتيقة، الكليم متداخل الأشكال القاتمة.

شيخه – صاحب الكرامات – ضرب على فخذه:

– بيقولوا أخطب لبنتك.. بكرّ رشيد، ذات دين. هتحفظ بيتك وانت عنها ما تتخيرش.. وإن جاءكم صاحب الدين فزوجوه..

الأراجوز علا وجيب قلبه، لسانه يدور في حلقه، تحرك بالذكر والدعاء، عيناه شخصتا نحو السقف، تعلقتا بالعوارض الخشبية التي تدعمه.

***

عينا العروس على خطواتها، يتقدمها أبوها، جلس وجلست، الأراجوز رفع إليها نظرةً داراها بجفنيه المنكسين، العروس تضغط أصابعها في باطن كفها، رمته بنظرةٍ خاطفة، فاحصة.

صاحب الكرامات رئل أهازيج الذكر، تحدث عن طيبين خُلقوا لطيبات، نظراته تجمع بينهما، تجود بأحاديث وآيات وعِبَر الزواج..

الفتاة تغمض عينيها، رأسها يرقص بين كتفيها، صوتها يداعب كلمات الذكر، الأراجوز يلقف اللحن والمعنى، يزغرد بالكلمات، يهز الخصر ويدير الرأس، صاحب الكرامات تستجيب لحيته الطويلة لابتسامته الخفيفة فتهتز.

المشاعل منثورة على الجانبين، الرجال وقفوا في صفوفٍ متقابلة، الأراجوز في المنتصف، صاحب الكرامات مضغ الأفيونة لينفتح صوته فيعلو كل الطبقات، يهتف بكلمات الذكر، يمد فيها الصوت، يطّعمها بالعُرَبِ والحُلّي، يتركوها لتجتاحهم وتسكنهم. يتمايلون، يطلقون لأجسادهم العنان، الأجساد تتمايل أسرع، تعمرها النشوة، البعض يسقط تحت تأثير الشبق، الأراجوز في المنتصف يهز الخصر ويدير الرأس ويداور بلسانه الكلمات.

النسوة ملأن غرفة العروس، فضنَ عنها لينسكبن في كل أركان البيت، يرقصن ويزغردن، يضحكن ثم يهتفن بكلمات الذكر فترتعد منهن الأجساد، بينهن تلك التي كانت قد دعته إليها.

الأراجوز سمى المولى ودخل بالعروس.

&&&

الأراجوز يقرب كوب الماء من فمه، يتلو عليه الحافظات، المنجيات، صارعات الجن والشياطين، مرديات الشر.

أنفاسه تحمل سر الكلمات ومفعولها، يدفعها نحو الماء فيهيج سطحه قليلًا، يختلط الماء بسر الكلمات، يشربه الممسوس، المسحور، المنظور، تقتل المارد إن سكن المعدة مباشرةً، تسري مع الدم لتؤرق كل رجيم، تطارده وتطرده.

الأراجوز يكتب على ورقٍ بلا سطور آياتٍ محكمات، بين ألفاظها السماوية يسرِّب ما أُتيح به عليه من طلاسم خُصَّ بها خاصة الخاصة.

الورقة يغمرها في كوب ماء، الحبر يذوب عن الكلمات، تمتد عن الكلمات الزوائد، تبهت، تزول، يتلون الماء بلون الحبر الأحمر، يتمتم ويسمي عليه، يدفعه للمريض.

– سمِّي واشرب مايته..

الماء الممزوج بالكلمات علاج لجسدٍ أشعل فيه الجان نار الحمى والغضب، في الليالي الباردة تلفح أطرافه ووجهه وأنفه نيران حامية.

الأراجوز يسمّي المولى، يقرأ آيات القرآن، يثبت مصحفًا أعلى رأس المريض، مائلًا على العينين، الجني قد يخرج يائسًا من العينين فيفقؤهما.

الأراجوز يحرك يده على جسد المريض محاصرًا ساكن الجسد، يدفع بيديه من أعلى إلى أسفل دافعًا الجني معه نحو الأسفل، يضغط بيديه نحو أحد فخذي المريض، بيديه يطوق الفخذ، يتمتم ويدعو، يدفع نحو الساق، نحو القدم، نحو الأصابع، نحو أكبر الأصابع.

الإصبع الكبيرة سوداء بلون الجني المكروب، المرتعد، المحاصر، الأراجوز يضرب الإصبع بسن الدبوس، يسيل عنها دم أسود. يستقبله على منديلٍ أبيض سبق وتلا عليه ما يدفع بالشلل، المنديل يقبض عليه جيدًا، يلقيه في كيس، يعقد قمته.

الجني المحبوس في الكيس سيسلمه إلى صاحب الكرامات، مُعلّمه يلقي بالأكياس في عينٍ عميقة بمنزله، جنده من الجن المؤمن يطيرون بها إلى جزيرتهم، يحبسون عصاة الجن في زنازين مشيدة، لا يرون النور حتى يؤمنون.

&&&

زوجة الأراجوز- ابنة صاحب الكرامات- أجلست الفتاة المكروبة إلى جوارها، سَمَّت الله، ضمت الفتاة إليها قليلًا، قبّلت جبينها، عيناها تحاورانها، تبثانها الأمان.

زوجة الأراجوز تمرر يدها في دوائر على ظهر المكروبة، تسمّي الله، تتلو المعوذتين، الأذكار، الأدعية، آية الكرسي، خواتيم البقرة..

ابنة صاحب الكرامات تتثاءب، تواصل تدليك الظهر، المرور على الرأس، احتضان القوام، ترقي ببركة الحبيب المصطفى.

جسد زوجة الأراجوز يرعد، عيناها تثقلان، فمها ينفتح على سعته متثائبًا.

تمرر اليد، تدفع بالدماء في العروق، تترع عن الأكتاف أثقال العيون.

الفتاة قامت من تحت يدها متوردة الوجه، باسمة، خفيفة.

ابنة صاحب الكرامات أُرهقت حواسها، ثَقُل جسدها، استمرت في التثاؤب، هتف ببركة الحبيب المصطفى، علا وجيب قلبها بالأذكار، لسانها يلهج باسم وصفات العلي، معها يرددن.

&&&

الأراجوز يقترب من زوجته. يقبّل جبينها، يمس شفتيها بشفتيه، يغازلها وقد برقت عيناه، ترغم نفسها على الابتسام، تفتح له ذراعيها. تستقبله بصدرٍ حاولت أن تجعل ضمته دافئة.

***

في جوف الليل ينزل الرحمن إلى السماء الدنيا، يتجلى. استلهمت لحظة في جوف الليل ظنت فيها انفتاح أبواب السماوات، تجلي المولى المجيب.

بكت عيناها حتى تقرحتا، رفعت أكفًا راجية.

الأراجوز عبدٌ أحبه المنّان وأفاض عليه، نقي القلب، لو لم يكن، ما قربه من أبيها، ما دله على الطريق، يحق له أن تهبه نفسها.

الحنّان أفاض على قلبها من بحور عشقه حتى امتلأ بأقصى ما يستطيع، فما نقصت بحوره قطرة، بفيض نوره منجذبة.

أن هوى زوجها قبس ينير لها الطريق لتسعد، بأمر ربها سيكون، فتورها حكمة من لدنه.

فنهاها تعلو، دموعها تجتاز حواجز يديها، تبلل الوسائد.

روح ابن عمرها الذي أحبت ومات لم تفارقها، يدخل عليها مع زوجها، يتمثل وجهه في وجه زوجها، المفارق لا يكف عن الاتصال بها في الأحلام، روحه طليقة، تطاردها بما سبق وقطعت من عهود.

وسط فنهاها، انتفاضات جسدها، تتمتم بالذكر والدعاء.. تسأل الستر والشفاء.

***

الأراجوز يضمها إليه، تغالب دموعها، يمسح على شعرها، يبتسم، فتبتسم له، همس في أذنها بحبه. تصمت.

الأراجوز يهز لها الخصر، يدير الرأس، يداور بلسانه الكلمات، تبتسم، تضحك ملء فمها، الأراجوز يجذبها إليه، تشاركه الرقص، يهمس لها بحبه، وهمس له، يحملها إلى الفراش، وقد التمعت عيناها.

&&&

/تسعت ابتسامة الأراجوز، اقترب من زوجته، قبّل شفتيها وجبينها، يتحسس بطنها، راحة يده التقطت ركلة ابنه، زوجته تأوهت في دلال.

صاحب الكرامات تلا عليه ما يحيطه بالبركات، أشرق وجهه وبش، عندما لمس البطن واتصل بالفتى، أخذ عليه العهد، كل جمعةٍ يأتي ليذكر جواره، يلمسه عبر حشا أمه، ويجدد له.

صاحب الكرامات يصلّي على النبي، يهتف بالمدد من سيدنا الحسن والحسين..

– هو الخير.. نبع رقراق وانفجر، لكن الطالع محجوب، والتصريح ذنب..

أمه تقذفه خارجها، الأراجوز أذّن في يمناه، أقام في يسراه، سمّى العلي ومضغ التمر، أذاق الصغير من ريقه الممزوج بريق التمر.

***

الأراجوز نهض من نومه فزعًا، سمّى المولى، تفل على يسراه ثلاثًا، مستعيذًا من شر الوسواس، تلمس موضع ابنه، شهق في عمق، وقد ارتاح صدره، قبّل الصغير.

حصّن نفسه، نفض الفراش وهو يسمي ويستعيذ، ضم راحتي يديه. وضعهما أمام فمه، قرأ المعوذتين، آية الكرسي مرارًا، مرر يديه المبللتين ببخار بركات الكلام على جسده، لمس كل الأجزاء، أغمض عينيه، نام ذاكرًا الله.....

نهض من نومه، وقد تسارعت أنفاسه، سمّى المولى، شرب ليرطب حلقه الجاف، تكررت الرؤيا.

خرج باحثًا عن ابنه، مناديًا، مفتشًا في الطرقات، المريدون جميعهم يفتشون معه، زوجته باكية، هائمة، ابنه في السابعة من عمره، صورته التي تمثلت له في المنام، وخرج باحثًا عنها كبدرٍ ليلة اكتماله، عيناه نجمتان لامعتان، فمه دقيق بسام، وجنتاه متوردتان.

***

في البكور نهض، ضم الرضيع إليه وهدهده، بإصبعه يدغدغ ذقنه، يدفعه للابتسام، على عينيه طفت الدموع، ضغط رأسه إلى بطن الرضيع، أدارها سريعًا ليدغدغه بها وهو يصيح، دس إصبعه في كف صغيره ليضم أصابعه عليها.

زوجته تضمه إليها باسمة.

– في إيه النهاردة؟! بتشرد كتير.

ابتسم لها ولم يجب.

&&&

يمدون الخُطى كي يلحقوا بتكبيرة إقامة صلاة الفجر، الدعوة للإقامة تطاردهم، يسمعونها بصوت الأراجوز، يرددها سكون الليل، على امتداد البصر يلمحون صاحب الكرامات، يوشك على دخول الزاوية.

الأراجوز وبعد أن أقام الصلاة التفت إلى صاحب الكرامات، يدعوه ليتقدم الصفوف إمامًا، صاحب الكرامات كان قد أشار إليه أن أقم الصلاة بعد أن انتهى من نافلته.

الأراجوز يدور بعينيه في أنحاء الزاوية. يعيد البحث بعينيه مرات ومرات، المصلون يلتفتون برؤوسهم وجذوعهم باحثين.

لا أثر لصاحب الكرامات.

مادُو الخُطى يدخلون الزاوية وقد خلعوا نعالهم ليلحقوا بصفوفٍ انتظمت.

يتفقدون الصفوف، فقط عيون تدور في كل مكان، أقسموا أنهم رأوه يدخل، الجالسون إلى جوار الباب أقسموا أنهم لم يحسوا خروجه،

الفائزون بالصف الأول أقسموا أنه أول من دخل الزاوية وصلى النافلة، وجلس في انتظار الإقامة.

أيديهم أرهقها طرق الباب، دفعوه بأجسادهم حتى انكسر، صاحب الكرامات ممد في فراشه، مستلقٍ على يمينه، رأسه جهة القبلة.

تمتموا باسم العليّ وصفاته، استغفروا ودعوا، غلب صلابتهم الدمع، هنهوا، كبروا، حمدوا، حوقلوا، سألوا الأجر لميتهم، ولهم.

&&&

دَوّرت المبخرة فوق رأسه، ترقيه وتدعو، تنثر البخور على الفحم المشتعل فيطقطق، ينفث الدخان حامل الرائحة.

أيقظته قبل الفجر ليقوم الليل، غسّلته بماء الورد، عطّرته وعطّرت ثيابه.

نسمات الفجر الباردة، رطوبة ماء الحموم، حملتاه خفيفًا، نشوانَ.

تلا في صدره دعاء دخول المسجد قبل أن يخطو عتبته، تمتم بأذكارٍ راجعها وزوجته، أذكار تثبت القلب، تنصر العبد، تعينه على ما عزم من خير.

زوجته سألته ألا ينظر في عيني أحد، يلقي السلام، عيناه تشردان في ملكوت المولى، قلبه معلق به، مترّه عن صغائرهم.

الأراجوز صلّى ما يُحيِّي به المسجد، جلس للذكر والدعاء، يلقي بجذعه للأمام والخلف، يدير الرأس، بين الحين والآخر يعلو صوته مزغردًا بمقاطع من الذكر.

العيون ثُبّتت عليه، البعض يركب اللحن، يهز الجذع، يدير الرأس، يردد الذكر، الجميع انضم إلى الحلقة.

تراصت الصفوف لصلاة الفجر، دفعوه، قدّموه، انقاد لأيديهم، ووقف إمامًا.

سلّم تسليمة ختام الصلاة، التفت، صافح المريدين، نظراته تضرب على البعد، تلحظ صفوف الجان، فاضوا عن باب المسجد وملؤوا الأفق، يتقدمون منه، يشدون على يديه الواحد بعد الآخر، كبيرهم انحنى معلنًا الولاء والطاعة، عقده في تسخيرهم مكتوب قبل أن يصير نطفة.

***

زوجته تفتح له الباب، عيناها معلقتان بشفتيه، لا يرد على تساؤلات ملامحها.

يشير إليها أن تتبعه، في حجرتيهما جلس القرفصاء، أجلسها أمامه، يمسك بيدها، ينظر في عينيها، سألها أن تعطيه العهد، يدها ارتعدت بين يديه، هتفت بالعهد، رددت من خلفه كلمات الذكر.

ضغطت شفتيها في شفتيه، ضحكت ثم نفخت في وجهه هواء امتزج بنعناعٍ كانت قد مضغته، ضمها إليه. انتشى برائحة ياسمين فاحت منها، تبتعد في دلال، يقترب منها، تدعوه بتمنع، تتقن التعثر. يقع عليها.

&&&

الجان المحسوبة على الأراجوز من البدء ارتدّوا عن أمر صاحب الكرامات بعد وفاته، حملوا السيوف، الخناجر، المُدَى، كبيرهم رفع سيفه عاليًا، التمع تحت ضوء القمر، به قسم الجني المعتدي على حرمة الجسد فسكنه.

كبير الجان بين يدي الأراجوز خلع السترة البيضاء للدراويش الهائمين، ارتدى زي الجند الأخضر، حمل سلاحه الذي أمره صاحب الكرامات بوضعه، شدّ على يد الأراجوز مجددًا العهد، الجند يحذون حذو كبيرهم، يتفرقون في كل الأراضي ناجدين المرضى، الممسوسين.

الأراجوز يستمر في الترنح للأمام والخلف ذاكرًا، لا يعقّب بكلمة.

•••

الجني المؤمن – وقبل أن تسترد العين طرفها – وقف إلى جانب قرين البشري. القرين يحمي جسد البشري النائم، يرد عنه الكيد، كبرق يتحرك من يمين الجسد إلى يساره، من خلفه إلى أمامه، من فوقه ومن أسفله مصارعًا، جيوش الجان الكافرة تكاثرت عليه، كادت

تجتازه، الجني المؤمن رفع سيفه، السيف الذي تلا عليه آية الكرسي ما إن يمس أحد المعتدين حتى يحترق جسده ببركة الكلمات.

الجني المؤمن يقف ظهره في ظهر القرين، يضربان في المهاجمين. يجزان الرقاب، يحرّقان الأجساد.

جيوش الجان تفر من أمامهم، من خلفهم أسرع الجني المؤمن شاهرًا السيف، صارخًا باسم العلي.

يلتفت عندما أيقن من ابتعادهم، القرين ينثني على نفسه، يريح جذعه، يلهث من الجهد.

ماردٌ كافرٌ يتسلل من خلف القرين، كاد يقفز عليه صارِعَه تاركًا الجسد مكشوفًا للمس،. الجني المؤمن يرفع حربته، يزنها بيده، يقذفها صوب الجني الكافر، على عيني الجني الكافر الطوليتين التمع سن الحربة الحاد، يرمي بنفسه من فوق قرين البشري، الحربة تنغرس في صدر القرين، يصرخ عنيفًا قبل أن يلفظ أنفاسه.

جيوش الجن الكافرة تقفز إلى صدر البشري وقد تُرك بلا حماية. يدخلون فيه بالآلاف، البشري يترنح، تتخطفه الشياطين من المس.

***

الأراجوز ينهض من نومه صارخًا، زوجته تنتفض من نومها، عيناها ملتاعتان، الأراجوز يستعيذ بالعليّ، يتفل على يسراه ثلاثًا، زوجته تضمه إليها، تتمايل وإياه.

&&&

أغمضت عينيها، سكن جسدها في الفراش وانتظمت أنفاسها. تظاهرت بالنوم.

الأراجوز مال عليها ليقبل جبينها، يهمس في أذنها بكلماتٍ طيبة حافظة، يربت عليها.

تقلّبت في الفراش قبل أن تمس شفتاه جبينها، أزاحته بذراعيها. هتفت بهلوسات نومٍ غير مفهومة، الأراجوز ناداها باسمها قلقًا، لا ترد، ناداها مجددًا وهو يهز كتفها، ردت بلسانٍ أثقله النعاس.

يجلس إلى جوارها. يمرر يده على جسدها مربتًا، تنتفض منكمشة على نفسها في طرف الفراش.

يحدق فيها بنظرات متسائلة، حائرة، قلقة، تهرب بعينيها من ملاحقات عينيه.

جارتهما تتمايل في ميوعة متى كانت بحضرته، عيناها المنكسرتان المتظاهرتان بالخجل والبراءة تشتعلان بالرغبة.

النسوة يحسدنها على امتلاك بركة الشيخ، نوره، نفحاته، تدفعهم بالمعوذتين، البخور.

جميعًا اكتفين بالنظر إليه، يعمرن بعطايا الإله وهباته، بثها عبده، منه تراح إليهن.

تجترئ على الخضوع بين يديه بالقول، تلقي بنفسها فوق يده لتقبلها، تنافس الرجال على ذلك.

حدَّق فيها جزعًا، ناهرًا، نازعًا يده، مس الرجل للمرأة من غير المحارم حرام.

بالتأكيد تأتيه المتجر، تتدلل، تسير هازة ردفيها، تضم الثوب عليها مبرزة ثدييها، تخضع بالقول، تلهبه بنظراتها.

الأراجوز ينحني على زوجته مقبلًا.

– سيبني يا راجل.. أنا تعبانة.. وبعدين أنا نازل علي الدم.

– بس تعالي.. مش عاوز غير بوسة.

يضمها إليه، يداعب بشرتها بفمه.

– بقولك سيبني..

تدفعه بعيدًا.

– بس مالك؟! في إيه؟

– يعني مش عارف؟!

– لا.. مش عارف.

يجذبها إليه، يرغمها على تقبيل فمه، تقاومه.

– قولي لي بس على اللي مزعلك وشوفي هاعمل إيه..

– أهو كلام!

– طب انتي بس قولي..

– ...

– مالك ساكتة ليه؟!

تتململ كثيرًا قبل أن تنطق.

– جارتنا..

– بقي الموضوع كده.. تعالي بس.

يحتضنها، ضاغطًا صدرها إلى جانبه.

– هاعملك كل اللي انت عاوزاه.

– احلف.

– والله..

يغرق وجهها بالقبلات، يداعب نعومتها بكفيه، تضحك. تبادل قبلاته بقبلات.

– بالمناسبة أنا ما نزلش علي الدم ولا حاجة..

– ما أنا عارف.. بس برده مش عاوز غير كام بوسة..

– يا راجل اختشي..

&&&

البشري يسمّي المولى مرارًا قبل أن يمد يده في صحن الطعام، بعد لقيمات قليلة خالط قلبه أنه لم يسمِّ، يهتف باسم الله بصوتٍ عالٍ، يطرد الشيطان الطامع في بركة الطعام.

يقف للصلاة، خشع واستحضر عظمة الله، في مخيلته تدور الوساوس الفاضحة، أصوات مدوِّية في أذنيه، صور عارية أمام عينيه، خواطر تلقي بالعبد في السعير.

يُسلِم رأسه لسلطان النوم، كلاب سوداء مسعورة تفتك بلحمه، ينتفض فزعًا، صارخًا، يشهق في عنف.

***

جند صاحب الكرامات من الجان ألقوا بعقد تسخيرهم مع وصية وليِّهم المتوفى في حجر الأراجوز، دانوا له بعهد ولاء، قبّلوا يده وانحنوا مجلّين.

ظلوا على ثيابهم البيضاء المطهرة، لم يحملوا يومًا سلاحًا، يرتلون الأناشيد، يتغنون بالذكر، يسكنهم الوقع والمعنى، يسيرون في مناكبها، ينجذب لهم كل من صفت نفسه.

***

جند صاحب الكرامات يقتربون من قرين البشري، القرين كفر بالرحمن حاربه في النفس الموكل بحفظها، في أذنيه يلقي بالوساوس، يبذر الفتن، يطعمه الشك.

يتحلقون حول القرين ذاكرين المولى، داعينه إلى الحلقة، يهزون الأجساد. يُدوِّرون الرؤوس.

القرين يسخر منهم، يبول في أذن البشري ماءه الحار الدافق استهزاء.

أمام عيني البشري تبدت أجمل النسوة عاريات، يترنحن من الشبق، يدعونه إليهن، مبرزات الأثداء، هازات الأرداف، مطبقات الشفاه الممتلئة على قبلاتٍ ساخنة.

يد البشري تسبقه إلى عانته، يدمن على نكح اليد، هزيل يترنح، مصفر الوجه، غائر العينين المنطفئتين.

ما إن يمسه ماء الطهر حتى تمتد يده إلى العانة، تفوح الجنابة من تحت كل شعرات جسده.

***

الأراجوز عمر قلبه بالقلق، شغله الفكر، توترت ملامحه وزحف عليها العجز.

&&&

أعوامه الخمس أدهشها المنادي.

ابن الأراجوز هرع نحو صوت الطبل، لمح العربة الخشبية، الراقص بالدف، الجالس على سطحها يضرب الرق المشدود على أسطوانات الفخار، الحمار الهزيل ينوء بجر العربة، فمه المدفون في جوال الدريس المملوء قعره والملفوف حول رقبته يحوّم من حوله الذباب.

الصغار يغنون حول العربة، يرقصون على وقع دقات الطبل. بعضهم ألقى بنقودٍ في يد ضارب الدف ففاز بطبلةٍ اندفع يضربها في غير إيقاع.

الصغير يحجل مغمضًا عينيه وفاتحهما راقصًا، منتشيًا بالوقع.

ضارب الدفوف ينحّي دفوفه جانبًا، يضع البوصة في فمه، خلق فيها فتحات، ينفخ فيها فتنداح النغمات، أصابعه تداعب فتحاتها.

الصغار يتجاذبون، يبذلون مصروفهم للحصول على نايٍ صغير، وتر مشدود على قوس يحتك بآخر شد على عصا خشبية رفيعة.

البائع يغني مناديًا على آلاته، حوله زفة من الصغار الراقصين.

ذو الأعوام الخمسة أشقاه المشي، وقف ليريح رجليه، رفع ثوبه ليغطي قفاه وقد صلته الشمس.

يتلفت حوله باحثًا عن طريق العودة، العربة صارت على البعد، الدموع والشمس الحارقة تغممان الرؤية أمامه، يحك عينيه، يدور حول نفسه، يسير في الاتجاه المعاكس، رأسه منكس، يتبع آثار عجلات العربة، بركة ماء سبق ورآها وسط الطريق، بناية تذكر لونها، نخلة أسقطت بضع بلحات، شجرة تهتز لمرور الريح.

يلمح أحد مريدي أبيه، يسرع نحوه، المريد ينخفض له، يحتضنه، يحمله ويسير.

– كنت فين؟! كلنا خرجنا ندور عليك..

***

المريد أنزله عند البيت، الصغير لمح أباه الأراجوز آتيًا على البعد، جرى نحوه، الأراجوز استقبله بصفعة على وجهه، دموعه أغرقت وجهه وملابسه بينما يجري ليختفي في حضن أمه.

– معلهش يا حبيبي.. أبوك وخايف عليك.

&&&

الأراجوز يجلس خلف مكتبه، يداه تعبثان في لحيته، شعراته البيضاء التي بدأت في غزو سواد الفتوة، عيناه شاردتان.

الصبية يختطفون الأطوال الخشبية المستطيلة، يقلّبونها بين أيديهم، ينقلونها بين كفٍ وأخرى، يَفُكون عنها بعض طيات الأقمشة، يعرضونها على الزبائن، يقفزون ويرقصون، يصعدون السلم ويهبطون، يمدحون وبعيونهم يغمزون، يضمون أصابعهم ويقبلون أطرافها قاذفين بالقبلة في الهواء لتقول بجودة الصنعة.

أصواتهم تختلط، يفتح لضوضائهم أذنيه، يبتسم.

لا يقدر على الوقوف بينهم، ارتداء الطرطور الأحمر، الزغردة بالكلمات، هز الخصر، تدوير الرأس.

فقط يمسك بالمسبحة، يهمس بالذكر، يهز الجذع خفيفًا، يُدوِّر الرأس بسيطًا.

سلّموه الإيراد اليومي، أعلموه بتفاصيل البيع، الشراء، الفقد، والمصروفات، غادروه لمساكنهم، الأراجوز يغلق عليه متجره، يصيح

بكلمات الذكر، يترك لأطرافه العنان، يهز الجذع طليقًا، يُدوِّر الرأس عنيفًا، يزغرد بصيحات الأراجوز، آيات الذكر.

هدْه الجهد، غمرت وجهه الابتسامة. تدفقت الدماء إلى وجنتيه.

يطفئ مصابيح الزيت، يغلق الأبواب، يشد القفل متأكدًا منه.

***

يده تعبث في لحيته، شعراتها البيضاء، يده الأخرى تمرر حبات المسبحة، يهمس بالذكر، يميل بجسده قليلًا، يُدوِّر الرأس قليلًا.

في الحلقة يجلس هادئًا، حكيمًا، من حوله المريدون يترنحون سكرانين بالذكر، يُدوِّرون الرأس عنيفًا، يهتفون بالكلمات.

يبحث عن لحظاتٍ يختلي فيها بنفسه؛ ليترك لجسده العنان.

&&&

في حلقة الذكر جلس، يهز جذعه خفيفًا للأمام والخلف، حوله المريدون.

صيحات زوجته وبكائها نزعاه من الحضرة، انتفض ناهضًا إليها، الجميع خرج باحثًا عن ولده الذي أتم السابعة، قعد مكانه.

أنوار النبي نفحات لا تحتملها كل الأجساد، تتوزع منه على أولياء ترقوا في مدارج الصالحين، منهم تخرج الأطياف لكل ذي حظٍ مريد.

المريدون يولدون محسوبين على شيوخهم وطريقتهم.

ابنه ليس من المحسوبين على حضرته، ضلّ ليجد الشيخ الذي يستمد منه نوره.

***

الأراجوز يضم رأس زوجته إليه، يمسح عليه، يحرك جذعه للأمام والخلف، يردد كلمات الذكر.

&&&

طافوا بالأقطاب، سألوهم الدعاء، الصلاة، زروعهم أضناها جفاف السماء.

دُلوا على المقامات، توسلوا بالرسول، آل البيت، أضاؤوا الشموع، توسلوا بصاحب الكرامات.

طافوا حول مقامه، بللوا عتباته بالدموع، قبّلوا أخشاب نافذته.

حول الأراجوز جلسوا في صفوف ذاكرين، راجين، أمّنوا على دعائه، دخل الخلوة لأجلهم ثلاث ليالٍ، في الرابعة طاولت التكبيرات قبة السماء، رقصوا ذاكرين، حامدين تحت المطر.

***

الرضيعة لا تكف عن الصراخ، البكاء بالدم، بيديها الضئيلتين تضرب وجهها، جماله، تغرس أطراف أصابعها فيه، تجذب، تقطّع في لحمه حتى يدمي.

على رأسها قرأ المعوذتين، نصح أمها أن تقرأ آي الذكر وهي ترضعها، يختلط الحليب بالكلمات، الحليب يستحيل لحمًا، دماء، مُزيّنًا ببركة الكلمات.. يطرد كل خبيث.

***

فُرِّق بين الرجل وامرأته. بين يديه اهتمها في عرضها.. سأله البينة فوجم.

جاءه سائلًا ردها..

– هتعقد عليها عقد جديد ومهر جديد حتى وإن كنتم لسه في العدة...

الزوجة مثلت بين يديه، عيناها متسائلتان، توسلت بعينيه، هزَّ لها الرأس بالموافقة..

***

– ورد فيما ورد أن مولانا الإمام علي ربط دابته لجذع شجرة وراح لشئونه.. سابها في رعاية راجل لقاه قاعد قرب الشجرة.. الشيطان لعب في عقل الراجل.. خطف من على ظهر الدابة غطاء لها، جري على السوق، وباعه بدرهمين.. الإمام علي ضرب إيده في جيوبه، وطلع درهمين عزم إنه يديهم للي حرس دابته.. رجع ما لقهوش ولا لقى الغطاء.. عرج على السوق يجيب واحد.. لقى غطاء دابته. سأل عليه، عرف إن البياع اشتراه حالًا بدرهمين.. الإمام علي سبّح ربه. ضرب كف بكف على البني آدم اللي استعجل رزقه من السما فدخل جوفه الحرام.. لو كان صبر كانت جت له نفس الفلوس وفي نفس الوقت من باب حلال..

كله بحكمته.... لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون.

***

– *سنانك* وقعت في الحلم، يبقى عمرك هيطول بإذنه. اشكر فضله، وافني سنينك في الخير، واحذر فتنة فقد الحبايب..

***

يمرّون عليه.. ينحنون على يديه، يقبّلونها متبركين، يربت على ظهورهم، ويبش في وجوههم، يحمل عنهم إصرهم، ويجدّد لهم.

&&&

زوجة الأراجوز تصرخ من آلام المخاض، الداية وقفت على رأسها، مسحت عرقها، تضع يدها على بطنها، تستشعر أوقات تحجرها.

مؤخرة الوليدة برزت في البداية، الداية ربتت على الأم، ابتسمت لها لتترع عن كاهليهما الجزع بعد أن صادفت مؤخرة الطفلة، بكفها ضغطت المؤخرة مانعة خروجها حتى لمست قوة تحجر البطن، أمسكت الطفلة من أليتيها بعد أن خرجتا، جذبتهما إليها، مدت يدها وعلقت ذراع الصغيرة، جذبتها إليها، كذا فعلت بالذراع الأخرى. حملت الطفلة من كاحليها ورفعتها للأعلى جاذبةً الرأس.

الأم تصرخ من الألم، الرعب، صراخها شاحب، الداية تصخرت ملامحها، تصلب ذراعاها، ثقلت قدميها، ترفع الوليدة من قدميها، تهبط بها، تجذبها إليها، تداورها.

الرأس محشور.

الوليدة تزحف على جسدها الزرقة، الداية صرخت، مازجت صرخاتها نزاع الأم.

الطبيب هرع نحو الأم والصغيرة المتدلية منها وقد حُشر رأسها. الأراجوز ضم إليه رأس زوجته مواسيًا، مطمئنًا، أمسك بكفها، ضغطها بأصابعه.

- البنت.. ربنا يعوض عليكم.

الطبيب اختلى بالأراجوز قليلًا، قبل أن يعود للأم والصغيرة، الأراجوز تعلقت بعينه دمعة، مسحها قبل أن يقبل جبين الأم، الطبيب رفع نحوه عينيه، الأراجوز هزّ له الرأس.

الطبيب أخرج مبضعه وأدواته، الأراجوز رفع إليه رأس زوجته. ركّز نظراته على عينيها بعيدًا عن الطبيب.

الطبيب قطع في رأس الصغيرة الميتة، الأم تصرعها الصرخات، أخرج الصغيرة، وَسَّدَ أجزاءها غطاء أُعد لها.

الدماء تندفع حمراء طازجة من فرج الأم، الطبيب دلّك لها بطنها.

غمس منشفة في البنج، ضغط بها أنفها وفمها.

بماء مغلي طهّر أدواته، قفازه، باطل تتبع مجري الدماء يطهر ويكوي. استخرج كل خبيثٍ خلفه الوليد وراءه، نتف الخلاص، كتل الدم المتخثرة.

ضم قبضته دفعها داخل فرج الأم، يده الأخرى وضعها على بطنها، يضغط اليدين إلى بعضهما البعض في قوة.

الأراجوز منقطع للذكر والدعاء، الدماء تلوث كل شيء.

ينكفئ على الجسدين الميتين، يغمرهما بالدموع، القبل، النهنهات، الدعاء.

&&&

الأراجوز يغمض عينيه وقد استرخى جسده. رجلاه استقرتا أمامه على سطح المكتب، جسده غاص في الكرسي، لا يبدد ظلام المتجر إلا قنديلٌ خافت الإضاءة على البعد، منح جل الأشياء ظلالًا شديدة الطول، صرف الصبية، غلّق المتجر عليه مع نزول الظلام.

فراشه بارد، حجرته ضاقت، يمكث الليل في المتجر، يقوم معظمه، يصلي الفجر، يعود بيته، يسبِّح فيه المولى حتى شروق الشمس، لن ينقطع الذكر فوق أرضٍ استخلفه العلي فيها.

يستشعر الخدر يتسلل إليه، دون أن تتحرك له شعرة يختبر اهتزاز أطرافه نشوانةً بالذكر، دوران رأسه، حركاته العنيفة البعيدة عن العيون.

قبضة ناعمة تحيط بمعصمه، يستفيق منتفضًا، يترع ساعده من يد جارته، ينهض من مجلسه وقد تعلقت عيناه بها، لهثت أنفاسه.

الجارة تصيدت نفسًا تعمل معه، سربتها لتختبئ وسط الأثواب، تخترق عليه وحدته.

– باركني..

تسقط على يده مقبلةً، الأراجوز يسحب يده منها، ينكمش في الجدار من خلفه.

يقيت جاثية على ركبتيها.

– انت من حقي أنا.. جيت لك قبل ما تتجوزها.. ما ردتنيش.. عجبتك وعجبتني..

تنهض، تلوك علكتها في إصرار، تغمز بعينها، تدعوه إليها بحركة شفتيها، بحسن فاجها.

الأراجوز يهدئ من أنفاسه المهتاجة، يمد الخطى صوب الباب، تمسك به من كتفه، يحاول نزع نفسه منها، يلتفت إليها، أنفاسها تخالط أنفاسه، عيناها الواسعتان المكتحلتان تتصيدان عينيه، ذراعاه في سبيل تملصه منها تصيبان صدرها المكتنز اللدن.

يدفعها عنه في قوة مستعيذًا وقد احمر وجهه، اندفعت الدماء حارةً إلى عروقه، أنفاسه لافحة.

دموعها تسيل على وجنتيها، صدرها يعلو ويهبط بالنهنهات. تصرخ.

– عمرها ما سَلِت حبيبها اللي مات.. الله يسامحك.. الله يسامحك.

***

متدثرًا بثيابه بقيَ أمام باب الجامع حتى صلاة الفجر هواء الليل البارد هدأ من حميته، طلب نعاسًا يهدئ من روعه فلم يجد.

الذكر لا يبث في أنحائه النشوة، لا يدفعه لهز أطرافه والغناء.

سيعتكف في المسجد، يعهد بالمتجر لصبيته المريدين، عيناه يغمرهما الدمع.

&&&

حملوا إليه المصروع.

اقتحموا عليه خلوته، الأراجوز مرتكن بظهره إلى العمود، مادّ رجليه أمامه، مغمضٌ عينيه معظم الوقت، مسبحٌ بحمد مولاه، سائله الصبر، العصمة من الفتنة بعد الميتين، الرضا.

المصروع كلوحٍ خشبي، غرّبت عيناه، طفح الزبد من فمه، ترعد أطرافه.

سمّى المولى واستغفره، استعاذ من الشيطان، متخطف الآدميين من المس.

الطبيب أغرق منشفةً بالبنج، ضغطها إلى أنف وفم المصروع.

الأراجوز يتلو أوراده، يهتز بالذكر، في كفه تلا ما فتح الله عليه به، البخر الخارج من فمه حامل بركة الكلمات مسح به أجزاء الصبي.

التفوا من حوله، رددوا من خلفه، عيونهم تشبثت بالمصروع. تعلقت بالسماء.

***

الأراجوز يلملم أشياءه، يخرج في جوف الليل بعد أن نامت كل العيون. يضرب في الأرض، يبحث عن بركة لم يعد يجدها، المصروع جاهد لأجل أنفاسه، نفذت إرادة المولى، رد عليه توسلاته وجهود الطبيب، الأراجوز يسير في غير هدى على خطى قدومه عائدًا من حيث أتى..

&&&

يسعى بين المقابر، يطالع شواهدها، يبحث عن قبر أبيه، وأمه. تلفحه الشمس.

تعثر بقبر الداية، قرأ لها فاتحة الكتاب، رفع يديه بالدعاء.

تهتاج شجونه، تندفع لمآقيه الدموع، يرتجف قلبه، وقد اضطرب خفقانه، الذكريات تنداح على رأسه، يواصل البحث.

يمسح عن عينيه الدموع ليستيقن مما رآه تحت غلالتها، شاهد يحمل اسم زوجته، ابنة الثري، خطفها الموت بعد تاريخ دفنه حي بقليل، يجلس أمامها طويلًا، يتلو آي القرآن، يذكر العليّ ويدعوه. يسأله الرحمة والمغفرة.

***

طاف بالمقابر مرات ومرات، لا سبيل للوصول لقبر أبويه، في عمق المقابر يقف، يرفع يديه صوب السماء، يقرأ لوالديه فاتحة الكتاب، يسّ لما قرأت له، سورة الملك، يلهج بالدعاء، عيناه تطفران بالدموع.

&&&

جثة جبلاوي لا تستقر تحت الثرى، يهيلون عليها التراب. تعود لتطفو فوق السطح.

حفروا عميقًا جدًا، الجسد يتحدى حفرهم بعيدة القعر، قفزاتهم على التراب بعد أن أهالوه على الجثة ليندك، الأرض ترفض ضمه.. تلفظه.

الجثة سكنها العفن، تزركشت بألوان الفطر ورائحته، انتفخ بطنها بالريح الفاسد حتى انفجر، بعثرت ما حوت من حشا مهترئة أصابها التلف.

يجمعون الأغصان الجافة، الوقود، الرائحة أزكمت أنوفهم، أهاجت فيهم الغثيان، إفراغ ما طعمته البطون، على الجثة تراكمت الحشرات، القوارض، أمراض الموت، الأرواح الشريرة.

أخته بكت بالدماء، تدفعهم بعيدًا عن أخيها، تمسك بالمعول تهوي به على الأرض حافرة، تدفع أخاها نحو الحفرة، تهيل عليه التراب، الأرض تنشق عنه ثم تنضم من تحته.

تمنعهم عن أخيها، يحملون النار ويقصدون إليه، يحملونها عنوةً، يبعدونها، تولول صارخة، تنتفض، تضرب بكل أطرافها، ترفس، يحيطون بها في قوة، يَشُلُّون حركتها، تغرس أنيابها في أقرب لحم إليها، يكممون فمها.

الأراجوز يحمل المعول، تسكن حركاتهم، ضجتهم، وقفوا يتأملونه، الأخت استرخت أجزاؤها، تحدق فيه. يضرب الأرض بمعوله، يدفع جثة زائر القبور صوب الحفرة، يهيل عليه التراب. انتظروا انقذافها في وجوههم، الأرض استسلمت، تضمه في جوفها طائعة.

أختُ زائر القبور تنتزع نفسها من مقيديها، تقرع صوب الأراجوز، تجثو أمامه، عيناها باكيتان، لسانها عامر بالشكر، العرفان، يتركها، ينصرف دون أن يُعرِّف نفسه، تطلعوا إليه وهو يبتعد، وقد شملهم الصمت.

&&&

النجار يهوي بشاكوشه على رأس "أجَنَة" ثُبّت طرفها المدبب على قفل الباب، واصل ضربات شاكوشه "للأجَنة"، الباب يرتج منتفضًا، عنه يهيج الغبار، النجار والأراجوز الواقف من خلفه يسعلان مرارًا، النجار يعاود معالجة الباب بالمطرقة.

***

– مين؟!

على الباب المقابل وقفت عجوز محنية الظهر، تحيطها الثياب السوداء، الأراجوز يتقدم منها.

– أنا يا خالتي

يذكّرها به.

العجوز ارتاحت ملامحها، علتها البهجة، ربتت على ظهره، ضمته إليها.

– أبوك كان زينة الرجالة.. أمك ست الستات تتحط على الجرح يطيب.

توكأت عليه حتى دخلت.

– حمد الله على سلامتك يا ابني.. حسبهم في الدنيا ممدود برجوعك... بركة إنك جيت.

العتب على السن يا ابني.. غيبتك خلتني أظن إنك مت وإني دفنتك..

– ربنا يطول لنا في عمرك..

– ويطمنا عليك.

•••

البابِ انفجر على مصراعيه تحت وطأة الضربات.

التراب قَرَّ وخالط كل شيء، الرطوبة سكنت هواء البيت، منحته رائحتها المميزة. فَتَح النوافذ لهواءٍ جديد، وطلبًا للضياء.

بعينيه يتلمس ويحتضن كل ما حوى البيت.

يتدثر بملابس والديه، يحتضنها، يقبلها، ويبكي..

"إدرة" والده في ركن الغرفة قصد إليها، رفعها إليه، قبّل فمها المترب، تسرَّب طعمها المالح إلى ريقه.

بحث عن "أراجوز" أبيه حتى وجده، داعب ثيابه الحمراء، "طرطوره". تلمس "شراشيبه"، وجهه.

يرتديه في يده، يحرك أصابعه وكفه فيرقص "الأراجوز"، يطلق الصيحات وقد غيّر من نبرة صوته، يدير كفه في سرعة فتدور "الشراشيب" المتصلة "بطرطور" "الأراجوز"، يهز جذعه للأمام والخلف، نشوان بالضحكات.

&&&

يدنسي "الإدرة" منه، سبق ونقعها في مياهٍ جارية، غسل تجويفها جيدًا، ربت على سطحها طويلًا.

غمرها في "الجاز"، بفرشاة يجوب سطح معدنها، يذيب صدأها وقدمها في "الجاز". يعاود نقعها في الماء، سطحها عاد لامعًا، مصقولًا.

يرشها بماء الورد، ملأها به لشمسين وقمرين.

حبات الفلفل الأحمر اللاهب وضعها، لصق جدار "الإدرة"، لفها إليها بصوفٍ عازل للحرارة، الفلفل ناري الطباع، سيشع حرارته على فول "الإدرة".

ضمَّ "الإدرة" إلى صدره، نهض بها. أبوه يخرج بها حيث الرمال اصطلت بشمس النهار، يدفن "الإدرة" في الرمال، تتسرب إليها حرارته.

نُم "الإدرة" جعله صوب رياح تهب من الشرق، رياح حجازية تحمل حرارته، بركاته.

يتأمل صفحة السماء، النجوم اللامعة المنثورة، تلك التي يميل بياضها للاحمرار، الأخرى التي يميل بياضها لزرقة الزبرجد، الزرقاء تشع برودة، ترعد الصدور، الحمراء دافئة الطباع، تدفئ الخائفين. المُعَلّم الذي جاء به الثري ليربيه وابنته سأله عن أحوالها، أبوه لقنه الدرس في المنام، أجاب، فأذهل.

في ظلمة القبور استضاء بها، حفظ مواقعها، رقص ذاكرًا، فرقصت معه.

يحرك "الإدرة"، يدنيها من تلك الحمراء، بجسده يحجب عنها الزرقاء، الباردة، كمّم فمها لتهيج في قلبها الحرارة، بين الحين والآخر يقلّب ما حوته من فولٍ وماء، يضيف ما يحسن الطعم و يحفز الشهية، ما درج على رؤية أبيه يضيفه، يرقص هازًا الجذع، يدير رأسه، وقد انحنى للأمام، يداور بلسانه الكلمات.

***

على فوله وقف مناديًا في السوق، أمامه "الإدرة"، فمها مفتوح. فوقه يرقص البخار راسمًا ما عنّ له.

يتحلّقون من حوله سائلين لذة الفول الزبدة، يرقص هازًا الجذع. يدير رأسه، وقد انحنى للأمام، يداور بلسانه الكلمات.

من لم ينفقوا من أعمارهم الكثير، مدوا أيديهم بصحونهم التي فرغت طالبين المزيد، من لَوْنَ الزمن شعرهم وعبث بملامحهم، ترحموا على رجلٍ عرفوه، أتقن صنع الفول.

&&&

على أنفسهم يُغلّقون الأبواب، غانم ومحروس يمسكان بالدف، قاسم يضرب كوبه بملعقته على هدي إيقاعات الدف، بينهم اكتسى الأراجوز بالحُمْرَة، غطّى رأسه "بطرطورٍ" أحمر، يرقص. يدير رأسه في سرعة وقد انحنى للأمام، "الشراشيب" المتصلة "بالطرطور" تدور كذلك في سرعة.

***

الأراجوز وبعد أن أنهى شرب قهوته اقترب من منضدتهم، النرد يدور فيما بينهم، حكى قصتهم في اللعب بالكريات، أزاحوا النرد جانبًا، حدقوا فيه ذاهلين، تعلّقت أنفاسهم بشفتيه.

شرع في سرد ما حدث له.

قبل أن ينهي روايته فاجؤوه بالأحضان، بادل قبلاتهم بقبلاتٍ أدفأ.

نهضوا من مجالسهم ممسكين بالدفوف، يضربون رقها، يرقصون من حوله، ينكفئون على ظهورهم. أشقت أنفاسهم شدة الضحكات.

&&&

الأراجوز يهز الجذع خفيفًا للأمام، والخلف، زوجته تذكر مرددةً وراءه، تطوّح الرأس، الأراجوز ينهض، يهز الرأس عنيفًا، يطوّح أطرافه، يعلو ويهبط بقامته، يهتف بالصلاة على طه الأمين، يسأله المدد.

زوجته ترتجف من نشوة الذكر، الاهتزاز.

الأراجوز يسمّي المولى ويحملها، يوسدها الفراش، أنفاسها مهتاجة، أنفاسه لاهثة.

يغمس شفتيه في شفتيها، جسده في جسدها.

ضوء الشمس المتسلل من النافذة أجبره على الاستيقاظ، فتح عينيه، تحسس الفراش، مرّر عينيه على محتويات الحجرة، يعتصر ذهنه، يستجمع تفاصيل الحلم.

أبواه حضرا إليه، غسلا أطرافه، شقّا صدره قبل أن يزفاه إلى عروسه.

ذكرى حلمه صورٌ مشتتة، يجهد نفسه في الربط بينها، استحضار صورة أبويه.

&&&

الثري جلس وسط ندمائه، كؤوس الشراب تدور بينهم، يمدون بأيديهم إلى صحن الفاكهة الموضوع أمامهم، يتناولونها، وقد استرخت ملامحهم، أنفاسهم معلقة بأصحاب الألاعيب، يتتابعون عليهم، يستعرضون بدعهم.

الثري ابيضّ شعره، تجعد جلده، وهن صوته.

مسترخٍ على جنبه، يصيح منبهرًا، مستحسنًا، يحرك يديه بالتصفيق.

بينهم تسعى غادة، راقصة، حركاتها دائبة، اهتزاز ورجفات، ترقص جائلة فيما بينهم، ترفع الرجل، تُدَوِّر الخصر، ترعش الصدر، تهز الأرداف، ملبنة، سكنها دفء الحياة.

الحضور صامتون، ساكنون، في حشاهم تسري الرعدة، عيونهم مُخْوَلّة، منفصلة..

الفتاة تنحط ساكنة.

أنفاس النظارة رياح وزوابع، صدورهم في صعودٍ وهبوط.

الثري يرفع إلى فمه تفاحة، تناولها من صحن الفاكهة، يقضم منها، يهم بالصياح على الغادة الراقصة أن تقترب، تغني، تروي ما تتفرد بمعرفته من سيرٍ، عبرٍ، حكايات الملوك الأقدمين، الشعوب الزائلة..

قضمة التفاح دفعها لسانه المتحرك في رعونة، انقذفت صوب حلقه.

أنفاسه حشرجات، نداءاته خوار، يمسك بحلقه، يجاهد في انتزاع أنفاسه من براثن الموت الماثل.

يضربون على ظهره، يصيحون على الطبيب، أحدهم حمله من ظهره ضامًا ذراعيه حول صدره، يدفع صدره في ظهر الثري بقوة، يحاول دفع القضمة.

تتفجر عيناه بالدماء، أصابعه المرتجفة تحاول القبض على أي شيء، عضلات جسده المتوترة تجاهد لفتح سبيلًا للهواء، سحبه نحو صدره الجائع.

أحدهم يتقدم نحو الجسد العجوز الساكن، يمد يده نحو جفني عينين جاحظتين، شاخصتين صوب السماء، نُزِع منهما النور، يضم الجفنين على العينين.

&&&

خلف الصندوق الخشبي أخفى الأراجوز جسده، فقط يده وقد ارتدت "أراجوز" والده برزت من أعلى الصندوق.

يُحَرِّك أصابعه وكفه فيرقص "الأراجوز"، يطلق الصيحات وقد غيّر من نبرة صوته، يدير كفه في سرعة فتدور "الشراشيب" المتصلة "بطرطور" "الأراجوز".

الأطفال يغرقون في الضحك دافعين بأجسادهم للأمام والخلف.

الأراجوز اكتسى بقماشٍ أحمر، غطّى رأسه "بطرطورٍ" أحمر، يرقص خلف الصندوق الخشبي، يدير رأسه في سرعة وقد انحنى للأمام.

"الشراشيب" المتصلة "بالطرطور" تدور كذلك في سرعة.

أراد العابد لروحه أن تتعلق بالأرض، أن تجوب منها المشارق والمغارب، أن تحمل روحه للبشر عطايا الإله.

يقولون إنك متى أحسست برجفة تشمل جسدك كله، بيدٍ حانية تحيط بقلبك، إذًا فقد مرت الروح إلى جوارك، ولربما مست جسدك.

الأراجوز يستشعر الرجفة وقد شملت جسده كله.. يد حانية وقد أحاطت بقلبه.

– أوهنك أن تُحبس روحك في لحمٍ و دماء.. آن لك أن تتحرر من كل قيد..

***

خلف الصندوق الخشبي أخفى أبو الأراجوز جسده، أحنى الدهر عوده، تغضنت ملامحه، أوهنه العجز، رجفات الشيخوخة شملت كل حناياه، فقط يده وقد ارتدت "الأراجوز" برزت من أعلى الصندوق.

يُحَرِّك أصابعه وكفه فيرقص "الأراجوز"، يطلق الصيحات وقد غيَّر من نبرة صوته، يدير كفه في سرعة فتدور "الشراشيب" المتصلة "بطرطور" "الأراجوز".

الأطفال يغرقون في الضحك دافعين بأجسادهم للأمام والخلف.

في أوج الضحكات ألقى استعراضه، إلى الجانب غير المرئي من الصندوق الخشبي أسند ظهره.

ضجيج الضحكات لم ينقطع عن أذنيه، يميل بجذعه قليلًا، يلقي نظرة متسللة على جمهور الضاحكين.

يضم دميته القماشية بقوةٍ إليه، يقبل فمها، يمسح على "طرطورها"، "شراشيبه". اتخذها عوضًا عن ابنٍ لم ولن يناله وزوجته.

يستشعر الرجفة وقد شملت جسده كله..

يد حانية وقد أحاطت بقلبه..

في عينيه تحرّكت الدموع، رجفات الشبق..

&&&

عن الكاتب

- أحمد سمير سعد.

- من مواليد المطرية، 26 سبتمبر 1983.

- حاصل على بكالوريوس الطب والجراحة العامة من كلية الطب البشري - جامعة القاهرة 2007.

- مدرس مساعد بقسم التخدير بمستشفى قصر العيني- كلية الطب البشري - جامعة القاهرة.

- الجوائز الأدبية:

• فاز بالمركز الأول في مسابقة القصة القصيرة – جامعة القاهرة 2005.

• فاز بالمركز الثاني في مسابقة القصة القصيرة – أسبوع شباب الجامعات 2005

• فاز بالمركز الثاني في مسابقة القصة القصيرة – جامعة القاهرة 2006.

• فاز بالمركز الثالث في المسابقة الإبداعية – الهيئة العامة لقصور الثقافة 2009 عن المجموعة القصصية "الضئيل.. صاحب غيّة الحمام".

• فاز بالمركز الثاني في مسابقة لجنة الشباب باتحاد الكتاب فرع القصة القصيرة – دورة عبد المنعم شلبي 2013

– صدر له:

• سفر الأراجوز – رواية، عن دار فكرة للنشر– 2009.

• الضئيل.. صاحب غيّة الحمام – مجموعة قصصية. – دار اكتب للنشر 2014

• تسبيحة دستورية – نصوص – دار اكتب للنشر – 2014

a.sameer.saad@gmail.com

رواية

على موائدِ الكلام المنصوبةِ على ناصيةِ الحارة أعلنتْ "بشارة الطاهرة"، لكنها دفنتْ السر في عمقٍ سحيقٍ منها. كلّ ما أخبرتْ به الطاهرة بعد ذلك هي أمورٌ واجبة الكتمان، الطاهرة مالتْ على أذنها، همستْ فيها ببعض الكلمات، ثم حدّقتْ فيها بعينين تلتمعان ببريق التحذير من البوح:

الحياة تُمنح للآلاف كل يوم، قليلون هم الذين يُمنحون مفاتيح نفحات الكون، البركات تغمرهم، من خلالهم تتوزع على كل عُمّار الأرض، عددهم ثابت، زوال أحدهم دون مثول البديل؛ معناه اختلال لن يكون.

أحدهم تذوي شعلته بعد أن تأججت شابةً طويلًا، مع انطفاء الشعلة تمامًا ستنطلق منها شظيةٌ ملتهبةٌ تدفعُ شعلةَ وَلَدِك للتوهج، سيصاحبُ ذلك سحبَ المولود لأولى شهقاته...

أحمد سمير سعد

غلاف: محمد عيد

اكتب
darektob.com